

# سقوط فاعزم

قصص قصيرة

للكاتب الدكتور  
ياسر نبيل عبد الحميد

اسم المؤلف: ياسر نبيل عبد الحميد

تنسيق داخلي: ياسمين خالد حسين

تدقيق: صفاء أحمد

تصميم الغلاف : مصطفى نصر

الطبعة الأولى ٢٠٢٥

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 30155-2025

الترقيم الدولي: 918-911-95-4714-6



### جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لا يجوز إعادة طبع أو نشر أو توزيع هذا الكتاب، كليا أو جزئيا أو تخزينه في أي نظام استرجاع، أو نقله بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية، أو ميكانيكية، أو سمعية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو غير ذلك، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف.

(١)

## سقوط ناعمر

سمرتها دافئة، تحمل جمالاً هادئاً لا يحتاج إلى شرح. شفتها العليا مرسومة بلطف، تضفي على وجهها شيئاً من الجاذبية، وشعرها الأسود ينسدل حول وجهها كستارة ناعمة، وعيناها السوداوان تلمعان بثقة، نظرة صافية وحادة، كأنها سهمٌ يعرف أين سيستقر.

قوامها لم يكن لافتاً بخفته، بل بانسجامه الطبيعي، تمشي بثبات، ترفع رأسها بكبرياء صامت لا يطلب الانتباه... لكنه يناله.

قضى بجوارها السنة قبل الأخيرة في الكلية، لم يكن بينهما حبٌ معلن، لكن كل ضحكةٍ منها كانت تلمس شيئاً داخله، لم يتحدثا عن المشاعر؛ فقد قالت الإشارات الصغيرة ما عجزت عنه الكلمات: ابتسامات خجولة، ونظرات طويلة نصفها اعتراف ونصفها تردد.

ومع ذلك، لم يجرؤ يوماً على الاعتراف بما يتجاوز السطح، وكأنها تركت له القلب موارباً... دون وعدٍ أو نفي.

وسط كل الجميلات اللواتي يلتفتن نحوه كان بريقها وحده هو الذي يطغى. يلتفت إليها وحدها هي تحديداً، وكأنه يريد أن يقول دون أن ينطق:

"أنا اخترتك، وفضلتك عن الأخريات، لأنك الوحيدة التي حسيت معها إن الحكاية ممكن تكمل."

ربما أحبته في صمت، أو لعلها لم تكن واثقة، لا في نفسها ولا فيه، بما يكفي لتخطو نحوه. وربما رأت في من يكبرها عمراً مستقبلاً أكثر استقراراً.

لكن غيرتها تفضحها أحياناً تلمع عينيها للحظة قصيرة، ثم تختفي بسرعة،

كأنها تخشى أن تُرى.

يوماً بعد يوم، امتزجت الدروس بالمشاعر، وصارت لقاءاتهما الصباحية قبل الامتحانات عادة أشبه بطقس خاص يجلسان في زاوية هادئة، يتبادلان الملاحظات والابتسامات، منحته امتياز الحضور في حياتها، وهو الامتياز الذي لم تمنحه لأحدٍ غيره، ، تنتظره صباح كل امتحان للمراجعة، وتجلس معه بعده لمناقشة الإجابات والتخمينات، وكأنها تفتّح له باباً في حياتها لا يُفتّح للآخرين.

وفي صباحٍ عادي، جاءت فتاة أخرى... أنيقة، لافته، عينان تتكلمان قبل الكلمات، عرضت عليه أن ينضم إلى مجموعتهم للمراجعة، وقبل أن ينطق مدت 'ندى' يدها وسحبته بلطف من ذراعه:  
"تعال، نراجع سوازي كل مرة".

كانت عبارتها بسيطة، لكن نظرة في عينيها لم تكن كذلك؛ تألأت فيها غيرة صافية ، مكشوفة ، رغم محاولتها إخفائها .

في داخلها، كان قلبها يتصارع: جزءٌ يريد أن يستمتع بهذا القرب الدافئ ، وجزء يخشى أن يمنح قلبه لشخص لا يضمن لها مستقبلاً يليق بأحلامها. حين لمح غيرتها في تلك النظرة الخاطفة... شعر أن الوقت قد حان، وفي اليوم الأخير من الامتحانات سار بجوارها بثقة تكاد تلامس الغرور... قلبه يسبق خطواته، كأن كل خطوة تقربه من سؤالٍ لا يحتمل التأجيل....

حين خرجا من بوابة الجامعة، كان كلٌّ منهما يشعر بأن ما جمعهما طوال العام يوشك أن يتبدد في الهواء المفتوح. خطواتهما متوازية، لكن بينهما مسافة صغيرة كفيلة بأن تفضح ارتباكهما. أحسا فجأة أن وجودهما معاً لم يعد له غطاء، وأن أي نظرة عابرة من زميل قد تُحمّل الأمر أكثر مما يحتمل.

"ندى" أحست بثقل نظرات غير موجودة، كأن أشباح زملاء تتريص عند أطراف الرصيف. أرادت للأمور أن تبقى كما هي: ذلك القرب الهادئ، واللقاءات التي تأتي دون موعد، والضحكات التي تتسلل بين صفحات الكتب... حبّ خفيف، لا يبعد ولا يطلب. كانت تفكر في السنة القادمة، آخر سنوات الكلية، وتقول لنفسها إن ما بينهما جميل كما هو: علاقة بلا اسم، بلا وعود، بلا أثقال... فقط مساحة دافئة تكفي القلب دون أن تُقيّده.

التفت إليها متردداً ثم كسر حاجز الصمت، ونظر في عينيها المرتبكتين ، وقال :

"ندى... هو إحنا هنتقابل إزاي بعد كده؟"

- نظرت إليه بلمحة من القلق، كأنها تقرأ ما وراء السؤال، وقالت بلهجة جادة، وعيناها لا تتركان وجهه:

"مش فاهمة، نتقابل إزاي يعني؟"

- ارتبك، لكنه ابتسم محاولاً أن يجد مخرجاً لائقاً:

"يعني نتقابل في النادي، أو في أى مكان... أو حتى أجيلك".

- ارتجفت شفتها في ابتسامة خفيفة، تحمل كل التردد والحذر في الوقت نفسه:

"تجيلي؟! مش فاهمة يعني إزاي؟"

- كلماتها فاجأته، دفعته للتراجع خطوة إلى الوراء، ثم سأل بصوت حذر أقرب إلى الهمس :

"هو أنا... فاهم حاجة غلط؟"

ساد صمت قصير، رفعت ندى نظرها إليه للحظة، ثم أشاحت بوجهها نحو الفضاء وقالت بجديّة هادئة:

"إحنا ممكن نتقابل... بس من غير ترتيب"

ابتسمت بعدها ابتسامة حزينة، وكأنها تخفي شيئاً وراء تلك الابتسامة... ومرت في ذهنها صورة العريس المنتظر تذكرها بالحدود التي عليها احترامها... وأكملت :

"أنا مش عايزة أظلم حد، ومعرفش إذا كنت أقدر أدي حاجة لحد... ولو فيه حاجة، فهتكون لزوج المستقبل، صاحب النصيب".  
كلماتها سقطت عليه كحجر في بحيرة راكدة ، حاول أن يخفي ارتبائه بابتسامة وقال:

"أنا ما فتحتش الموضوع من فراغ، أنا شايفك الصورة اللي حلمت أكمل معاها حياتي".

كان يريد أن يقولها بوضوح:

"أنا عايز أكون زوج المستقبل"

لكن في نبرتها كان شيء يغلق باباً لا يريد أن يراه موصداً. تنقّس بعمق، وبدا كمن يحاول أن يوازن كلماته قبل أن يضيف بنبرة عاطفية ناعمة:  
"عارفة... في ناس بيعدّوا في حياتنا وما يسببوا أثر... وفي ناس بيفضلوا جوا القلب. وأنا... مش ناوي أقفل أي باب يقربني منك أكثر لحد ما تكوني متأكدة".

- تأملته لحظة، وفي ابتسامتها شيء من الغرور، لكن تحتها خوف لا تريد أن تراه، ثم غادرت بخطى ثابتة، كما لو كانت تهرب من المواجهة، تاركَةً خلفها رجلاً مذهولاً، لم يستوعب وقع المفاجأة في ردّها، كأنه تلقى صفعَةً أزاحت ملامح عالمٍ رسمه في خياله على نحوٍ مختلف تمامًا.

ظل واقفاً في مكانه كمن أُطفئت أنوار حلمه فجأة، يحاول لملمة شتات أفكاره، وقبل أن يستفيق من شروده، مرّت إحدى صديقاتها المقربات

تحمل طفلها الرضيع.

توقفت بجواره، وقطعت صمته بضحكة خفيفة وسؤالٍ مبالغت عن ندى؟.

داعب الطفل وهو يحاول إخفاء ارتبائه، ثم روى لها ما جرى بإيجازٍ مرتبك، فارتسمت على وجهها دهشة صامتة، قبل أن تهمس بنبرة خفيفة تحمل أكثر مما تقول."

'وانت جاهز للزواج؟'

- أجب بسرعة:

"أنا نيتي جادة، وعايز بعد التخرج نبدأ مشوارنا سوا"  
وابتلع ريقه وأردف:

"وشقتي مع والدتي تكفيننا ... ومش ممكن أسيبها لوحدها، أنا وحيدها وما ينفعش تعيش لوحدها."

- ابتسمت الصديقة بخبرة، وقالت هامسة :

" أنت فاجأتها... يمكن افكرتك بتتسلى."

ثم أضافت بغمزة هادئة :

"سيبلي الموضوع ده."

وانسحبت بصمت، وتركت خلفها وعدًا خفيًا بشيءٍ قادم.

\*\*\*

غادرت ندى، وفي عينيها بريق زهو يلمع تحت ستارٍ من الحيرة..... أحقًا محمود يحبني ؟

ذلك الفتى الذي تلتف حوله النظرات أينما مضى؟!

ربما كان صادقًا... لكنها تعلم أن الزمن لا يراهن على المشاعر فقط، والعمر المتقارب لا يربك القلب بقدر ما يربك الحسابات، في خاطرها، كان

"حسام" يلوح كخيارٍ واقعي:

"رجل أكبر منها بسبع سنوات، يتمتّع بوظيفة مرموقة، وشقّة رحبة في منطقة راقية، وسيارة فارهة، ورصيدٍ مريح في البنك، فضلاً عن جدّيته في ترتيب لقاءٍ رسمي للارتباط... لا التواء فيه، ولا إشارات خفيّة، كلّ شيءٍ عنده واضح ومباشر."

أما محمود... فكان قصة جميلة عاشتها دون ندم، مليئة بالضحكات، والهمسات العابرة، والنظرات التي قالت ما لم يُقال... لكن الصفحة، مهما زُينت، آن أو أن طيّها... الأصدقاء تزوجوا، أنجبوا، وفتحوا البيوت، وهي لا تملك رفاهية المغامرة ولا قلبًا يحتمل الخسارة من جديد، ولا مجال لحياة مؤقتة وأحلام مؤجّلة.

نظرت لنفسها في مرآة الحُلم والواقع، وقالت بصوتٍ لا يسمعه أحدٌ:

"القلب يهوى... لكن العقل يختار."

دق باب غرفتها ودلفت صديقاتها واحتضنتها قائلة:

"إيه المصيبة اللي عملتيه ديه!"

- رفعت حاجبيها بدهشة، وقالت مستفسرة:

"مصيبة؟"

- ردت مسرعة:

"محمود، الواد جاد للارتباط بك، وزى الفل،،،، نيلتيها ليه؟ إحنا كنا

مستنيين اللحظة دي!"

- أغمضت عينيها كأنها تحاول نسيان شيء مؤلم، وقالت بهدوء:

"أنا مش خايفة من محمود... أنا خايفة من نفسي معاه. خايفة أكون

حتّيت، مش اخترت."

ثم تنهدت بخفة، وألقت بجسدها على طرفِ السرير، تحسست الوسادة

بين يديها برفق، كمن يبحث عن طمأنينةٍ عابرة لا يعرف إن كان يريد أن يجدها أم يتركها تضيع وهمست بصوت خافت:

" محمود وسيم، وكل حاجة فيه تغري العقل قبل القلب... لكن في إحساس جوايا بيقولي إنه عمره ما هيبقى ليا."

- نظرت إليها صديقتها باندهاش، وجلست بجوارها، قائلة بنصف مزاح ونصف جدية:

"يعني إيه مش ليكي؟ ده بيفكر بالجواز يا ندى! الناس بره بتتجوزوا على فرصة، إنتي جاتلك فرصة وقلب".

- ضحكت ندى بمرارة ممزوجة برقعة، وقالت:

"أنا عشت معاه لحظات حلوة... بس يمكن هي كانت لحظات تتعاش، مش تُبنى عليها حياة."  
ثم ابتسمت وأكملت:

" حسام هيقابلني الخميس الجاي قبل ما يتقدم رسمي."  
- ردت مسرعة :

" وافرض ما نالناش الرضا، تبقي خسرتي محمود "  
بدا على وجهه أثر حيرة عميقة وقالت:

"أنا مش بخليه استبن... بس أنا مش جاهزة أعيش صراع جديد، ولا أقدم له نصف يقيني، وأنا نفسي مش متأكدة. أنا عايزة أرتاح... أعيش حياة فيها طمأنينة".

ثم تابعت بنبرة أكثر حزمًا، كأنها تحاول أن تقنع نفسها أكثر من إقناع الأخرى:

"محمود يستاهل حب واضح... وأنا دلوقتي مليانة شك، مش هأظلمه، ومش هأظلم نفسي".

- ابتسمت صديقتها بخفة، وكأنها قرأت ما داخلها، وقالت:  
"إنني عايزة تعيشي حياة مرتاحة، من غير تعب، ما انا اهو ابتديت مع  
جوزي من الصفر لا كان عنده شقة ولا عربية زي محمود، وسافر دبي،  
وسافرت له، وخلفت، وقعدنا عند ماما، وأخذنا الدنيا خطوة خطوة،  
وقربنا نشم نفسنا".

- ندى هزّت رأسها، وكأنها تقول:

"الزمن كفيل بالإجابة".

ثم نظرت إلى صورتها على المرأة وقالت همسًا:

"يمكن لازم أختار... بس مش لازم أندم."

\*\*\*

عندما حان موعد المقابلة مع حسام لم تكن كما رسمتها بخيالها رغم  
تأنقها ومظهرها الذي بدا أقرب إلى امرأة ناضجة واثقة، تسلّل شيء غير  
مرئي إلى المشهد:

القلق في عين حسام، الارتباك الذي لم تُدرکه فورًا، ثقتها الزائدة، تلك التي  
غداها إعجاب محمود بها، صارت تظهر كدرع لا كجاذبية، كأنها تجاوزت  
التوازن الذي يحتاجه لقاء كهذا... جرأتها أمام والدته، تلك التي ظنّتها  
نقطة قوة، جاءت قاسية بعض الشيء في أعينهم.

والأم، التي كانت تنتظر أن ترى في ندى "زوجة ابنها" وجدت في المشهد  
ما يدعوها لإعادة النظر، فتحدثت عن فرصة للمقارنة، فتأخر القرار،  
وتسرّب الفتور، ثم اختفى حسام بهدوء... وكأن شيئًا لم يكن.

الدهشة غلفت عقل ندى، تفتش عن السبب:

هل أخطأت؟

هل خسرت حسام لأنها لم تكن هي، بل نسخة متأثرة برغبة إثبات الذات؟

هل ضاع محمود في زحمة العقل؟  
كل هذا يدور في خاطرها، ولا أحد يجيب.  
لكن في أعماقها، هناك صوت خافت يقول:  
" فضلت أدور على راحتى مع حسام، ما فتحتش قلبي لمحمود، رغم إنه  
كان بيدندن جوايا طول الوقت."

\*\*\*\*

اعتاد محمود أن يعمل مع صديقه أسامة خلال شهور الصيف، كان أسامة  
يعمل في استقبال أحد الفنادق، ويتصل بمحمود حين يحتاج إلى سيارة  
لتوصيل السياح إلى المعالم الأثرية، أو إلى مطار القاهرة، مقابل أجر  
يتقاسمونه، لمحمود النسبة الأكبر.

وذات ظهيرة قائظة، ناداه أسامة من شرفة سكنه بصوت لاهث، وهو  
يلوّح بيده في الهواء:

"محمود! انزل بسرعة!"

هبط محمود على عجل، وعيناه تسألان قبل لسانه:

"في إيه؟"

رد مسرعا:

"فين العربية؟"

- أشار محمود إليها على الناصية .

- أمسك أسامة بيده وهو يسرع:

"يلا يا عم، معايا بنتين من إسكندنافيا في الفندق، وعايزين يزوروا برج

القاهرة، فرصة نعمل قرشين حلوين!"

أوماً محمود برأسه، وقاد السيارة، وصديقه بجواره، حتى وصلا إلى

الفندق. لم تمر لحظات حتى خرجت السائحتان:

آيتان من الحسن، تخطان بخفة وثقة، الجمال في ملامحهما إعجازٌ فنيٌّ وعلميٌّ، كأن الحُسن ذاته يتباهى بأن يُنسب إليهما." كانت الأولى "Sanni" ساني - في الحادية والعشرين من عمرها، بجمالٍ ناعم يشبه ضوء الشَّمس حين يُصافح سطح بحيرة شمالية وقت الفجر، شعرها الأشقر الطويل ينزلق على كتفيها كشلال ذهبي، وعيناها بلون الثلج الذائب حين يكتسب مسحة زرقاء، وجهها، صغير بيضاوي، توزعت فيه البراءة والدهشة كأنها خرجت للتو من لوحة مرسومة بأنامل فنان عبقرى. أما الأخرى، "Aya" - آية "، في الرابعة والعشرين - ذلك الجمال الناضج بكل ما فيه من ثقة وتجربة، طولها ممشوق، وشعرها الأسود كالليل ينحدر حتى خصرها، تتخلله خصلة ذهبية في مقدمته كوميزٍ شمسٍ في ليلةٍ قطبية.

خطوتها تحمل هدوء الجليد وعنفوان الرياح، لا تُسرع ولا تتوانى، بل تمضي كمن يعرف وجهته تمامًا، عيناها الرماديتان تلمعان كأن خلفهما قصة لم تُرو بعد، وبشرتها الشفافة كأنها نسجت من الضباب، وفي نظرتها شيء يُشبه التحدي، أما ابتسامتها، ففيها تلميحٌ لامرأةٍ لا تدرك كم هي أسرة.

- نزل محمود من السيارة يستقبلهما. ابتسما له معًا، ومضت لحظات صامتة تبادلوا خلالها النظرات، كأن شيئًا ما يُقال دون كلام.

ثبتت "Aya - آية" عينيها على محمود - نظرة طويلة هادئة، كأنها تتفحص فصول رواية مكتوبة في ملامحه الوسيمة، شعره الأسود الناعم يُحاكي الليل، وعيناها تُشبهان ضوءًا خافتًا في غرفة مغلقة؛ لا يكشفان كل شيء، لكنك لا تستطيع أن تغضّ البصر عنهما، جسده الرشيق بدا كما لو

أنه اعتاد الحركة بخفة، كراقص خفي لا يُرى في الحلبة، لكنه يقود الإيقاع. زفرت "آية" نفسًا عميقًا حرّك خصلة شعرها الصفراء في الهواء، ثم، بخطوة واثقة، تقدّمت وفتحت باب السيارة وجلست بجواره دون أن تنطق بكلمة... وكأنها - في قرارها الصامت - اختارت المقعد الذي تتمنى ألا تغادره أبدًا."

في الطريق إلى برج القاهرة، أخرجت "ساني" من حقيبتها كاميرتها، تلتقط صورة من النافذة، قائلة بابتسامة مرحة:

"كل شيء هنا يبدو حيًّا... حتى الزحمة فيها موسيقى!"

- ضحك أسامة وهو يلتفت إليها:

"دي القاهرة... بتحب تزعق وهي بترحب بيكي."

- ردت ساني:

"أحب الأصوات... لكنها كثيرة جدًا، كيف تعيشون هكذا كل يوم؟"

- نظر لها محمود عبر المرآة، وقال بنبرة ساخرة:

"بنتعلم نسمع اللي يهم... والباقي بنخليه خلفية."

- نظرت -آية- بهدوء عبر الزجاج، ثم إلى محمود، وقالت باستفهام ناعم:

"وأنت؟ ماذا تسمع الآن؟"

- أجاب وهو يركّز على الطريق، نبرته ما بين الجد والمزاح:

"بسمع أحلى صوت... صوتكما."

ساد لحظة صمت، لم ترد آية، واكتفت بنظرة جانبية طويلة نحو محمود، نظرة فيها ما يشبه الفضول.

- قطع أسامة الموقف ضاحكًا:

"محمود مش بيسمع كلاكسات... ده بيسمع دقات القلوب!"

- قهقهت ساني وأضافت:

"أكيد في مصر... حتى صوت القلوب عندكم مدافع!"  
ركن محمود السيارة بجوار البرج، ثم تراجعا جميعًا... تقدّم محمود  
بخطوات واثقة، وقطع أربع تذاكر للعود، وقبل أن يدلفوا إلى  
بهو المبنى، أسرع كلٌّ منهم ليمنحه قيمة تذكرته، لكنه رفض  
مبتسمًا:

"اعتبروها دعوة مِنِّي."

- نظرت إليه آية، كما لو كانت تبحث عن شيء خلف ملامحه  
- ثبت هو نظره في عينيها، ثم همس بصوت خفيض لم يسمعه  
سواها:

Consider it...an expression of my gratitude to the most "

"beautiful woman who rose above me like a star

"اعتبريها... تعبير عن امتناني لأجمل امرأة ارتفعت على رأسي  
كنجمة".

شعرت بشيء دافئ يتسلل إليها، والأرض تدور تحت قدميها، لم تكن  
معتادة على كلمات كهذه، لكنها تماسكت.  
فهي بخبرتها تعرف:

"العربي يبدأ من الكرم... وينسج خيوط الدفء، لكنها كثيرًا ما تقود  
إلى صفقة لا تطلبها الأنثى، بل يُراد منها المقابل..."

في مصعد البرج، وبينما كانت الأرقام تومض على الشاشة صعودًا  
نحو ١٨٧ مترًا، زمجر المصعد بصوتٍ معدني، كأن صريره تحذيرٌ  
خفي و تعالت أصواته، تسلت رعدة خفيفة إلى قلب آية، اقتربت  
دون وعي من محمود، واحتضنت ذراعاه بخجل، كأنها تستنجد  
بشباته في هذه الرحلة المعلقة عن الأرض.

في الزاوية الأخرى، كانت ساني أكثر جرأة... قفزت بذراعيها حول عنق أسامة وهي تصرخ:

"مش قلتك نركب الجمل؟ كان آمن!"

انفجر الجميع بالضحك، وامتزجت رهبة العلو بخفة الدم، فتحوّلت اللحظة إلى ذكرى دافئة لن تُنسى.

جلسوا حول الطاولة على المنصة الدوّارة التي تكشف معالم القاهرة في دورانٍ هاديٍّ لا يكاد يُحس.

تقدّم النادل بزيه الأنيق، وقبل أن يفتح فمه ليسأل، طلبت آية وساني، بابتسامة هادئة توحى بالاعتیاد:

"Bloody Mary، من فضلك".

-هزّ النادل رأسه بفهم، ثم نظر إلى محمود وكأن الدور عليه.

وقبل أن يتكلم، تنحّج أسامة، وقال بتحذير خافت أقرب للهمس:

"دي فيها فودكا... يعني خمر".

تراجع محمود فوراً كأن أحدًا نبهه من خطوة خاطئة، وابتسم في حرج وهو يقول:

"آه، لأ... أنا هاخذ عصير برتقال، زي أسامة".

التقطت ساني القائمة وهي تتمتم:

"طب وأنا نفسي في حاجة حمراء من غير مشاكل!"

ضحك النادل معهم، وسجّل الطلبات ثم انسحب بهدوء

بعد لحظة صمت قصيرة، التفتت آية إلى محمود وقالت:

"أنت برج العقرب"

- ابتسم وأومأ برأسه، ثم أردف هامساً :

"وأنتِ برج الحوت"

ارتجفت أنفاسها لوهلة، واتسعت عيناها بدهشة صافية، وكأنها لم تتوقع أن يعرف:

"عرفت إزاي؟"

ظل محمود صامتًا، يراقب ارتباكها بابتسامة ضيقة، تحمل شيئًا من الغموض. وصدق حدسه أشعره بداية خيطٍ خفيٍّ يتنسج بينهما، خيط من التفاهم لا يحتاج إلى كلمات.

أما هي، فشعرت بمزيج غريب من الانجذاب والارتباك، وكأن شيئًا غير مرئي يجمعهما دون أن تدري. صدق حدسه لامس عمقًا في روحها لم تنتبه له من قبل، تسلل إليها فجأة، وولّد بداخلها شعورًا مبالغًا بالطمأنينة والثقة، ذلك الإحساس دفعها لتترك تحفظها جانبًا، وتبادر بنبرة هادئة، أقرب إلى الرجاء:

"هل تمانع في اصطحابنا - أنا وساني - ومعنا اثنان من أصدقائنا، في زيارة إلى الإسكندرية يومين؟"

- ابتسم محمود بلطف، وألقى نظرة سريعة على أسامة قبل أن يسأله:

"وانت هتكون معانا؟"

- ضحك أسامة بخفة، ثم ردّ بنبرة متحسرة على سبيل المزاح:

"للأسف مش هقدر أجي... عندي شغل، يا ابن المحظوظة!"

كتم محمود ضحكته، فهو يعرف تمامًا مدى ولع أسامة بالنساء.

- رفعت ساني السكين، وهي تقطع قطعة لحم وقالت:

"هتاخذ كام مننا عشان تروح معانا؟"

قبل أن يرد، مدّ أسامة يده سريعًا وأمسك بمعصم ساني، رافعًا

سكينها نحو محمود على سبيل المزاح، ثم قال بنبرة تمثيلية:

"جاوب وإلا نقتلك هنا ونخلص!"  
تفجرت ضحكاتهم جميعًا، وراحوا في نوبة هستيرية من الضحك،  
حتى كاد محمود يختنق بعصير البرتقال.  
تمالكت آية نفسها، وقالت وهي تحاول كتم ضحكاتها:  
"على كل حال، يجب أن تتقاضى مقابلًا... وليكن ألف دولار على  
الأقل".

-أوما محمود برأسه موافقًا بابتسامة هادئة.  
تابعت آية:

"ونرغب في الإقامة بشقة على البحر مباشرة، لا فندق".  
-ريّت محمود على يدها برفق، وقال مطمئنًا:  
"لا تقلقي... سهلة".

ما إن توقفت السيارة أمام الفندق، حتى قفزت "ساني" بخفة من  
المقعد الخلفي، تجرُّ "أسامة" خلفها وهي تضحك، فيما آية مالت  
بهدهوء نحو محمود، وطبعت قبلة على وجنته، قائلة بصوت  
خافت:

"شكرًا لك"

رفع حاجبه قليلاً وقال مبتسمًا:

"شكرًا على إيه؟"

ابتسمت آية، ونظرت إليه نظرة قصيرة ثم قالت:

"على كل حاجة... على إنك كنت موجود، من غير ما أطلب".

ثم نزلت من السيارة بخطوات هادئة، تاركة خلفها أثرًا لا يُقال،  
لكنه يُحس.

صعدت آية إلى الفندق بنفس الهدوء، كأن كل خطوة تعيد ترتيب

نبض قلبها وارتباك أفكارها. في صمت الغرفة، وقفت لحظة تتأمل انعكاسها في المرأة، تتساءل في داخلها:  
هل هذا الانجذاب مجرد وهج عابر، أم أنه سيترك أثرًا أعمق في قلبها؟ مرّت يدها بخفة على خصلات شعرها، وارتسمت على وجهها ابتسامة صغيرة مليئة بالخجل والرغبة الصامتة.

\*\*\*

في الثامنة صباحًا، كانت آية و"ساني" بانتظاره، ترافقهما "إيما" التي لا تقل جمالًا عن رفيقتيها، وانضم إليهم "ياري"، شاب ثلاثيني ذو طاقة معدية وضحكة صافية. جلست آية بجوار محمود في السيارة، وانطلق الجميع في طريقهم إلى الإسكندرية. كان ياري يطلق النكات واحدة تلو الأخرى، وتداخلت ضحكاته مع ضحكات محمود، كأن بينهما صداقة قديمة تشكّلت بين لحظة وأخرى.

في استراحة الطريق، نزل الجميع لشراء بعض الحاجيات، بينما بقيت آية تجلس على مقعد خشبي في الظل. عاد محمود وهو يحمل عبوة ماء مثلج وعلبة شوكولاتة، ناولها إيّاها وهو يبتسم.

تناولتها بدهشة، وسألته:

"عرفت منين إني محتاجهم؟"

ثبت نظره في عينيها للحظة وأجاب بهدوء:

"من عنبيكي".

أطلقت زفرة خفيفة حرّكت خصلات شعرها الذهبية، كأنها تزح بها ارتباك اللحظة. ثم التفتت إليه بصمّت مشحون، وثبّتت

عينها في عينيه، حتى تلاشت الضوضاء من حولهما... تقدّمت بخطوة، ثم مالت برفق، وطبعت على شفثيه قبلة ناعمة، ودون أن تفلت نظرها منه التقطت يده في يدها، وواصلت السير معه في صمّتٍ مريح، حتى بلغا السيارة، شاردة الذهن، تسترجع ما لا يُروى، فهي تكبره بثلاثة اعوام لكنها لم ترّ فيه فرقَ العُمر، بل رأته بعين الحلم، لا بعين الواقع، كأنّه فتى أحلامها الذي أبطأه القدر، وجاءها من بلاد بعيدة.

ومنذ تلك اللحظة، عزمت أن تحيا كل لحظة بقربه بكامل وعيها وميل قلبها، حتى وإن لم تأتِ القصة كما تمنّتها روحها." في الشقة المُطلّة على البحر، وبعد يومٍ حافل بالتجوال بين معالم الإسكندرية، والسباحة في مياهها الزرقاء، اجتمع الجميع يلعبون "الكوتشينة" على الطريقة الإسكندنافية، يتبادلون الضحكات بمرح مبهج.

ومع مرور الوقت، تسلّل التعب إلى أجسادهم، فانصرف كلٌّ إلى غرفته، تاركين "المستروم" لآية وله. جلست بجواره، صامتةً أول الأمر، ثم قامت تبدّل ملابسها إلى بيجامة أنيقة، لم تُخفِ ذوقها الرفيع، ولا تلك اللمحة من "الثراء الأوروبي" الذي يعرفه جيّدًا؛ فقد خبر تفاصيله في وجوه السائحين وسلوكهم.

- اقتربت منه برقة، وأمسكت يده وهمست:  
"مش هتنام؟"

- هزّ رأسه بالإيجاب.  
دلفا معًا إلى غرفة النوم.

غيّر ملبسه في الحمام، ثم تمدّد بجوارها على السرير، صامتًا، متوجّسًا.

بعد برهة، مدت يدها لتلتقط يده، فارتجف.

لم يكن في قلبه سوى رغبة واحدة:

"ألا يُغضب الله".

شعرت بتوتره، فداعت بأناملها أنفه بخفة، فارتسمت على وجهه

ابتسامة خجولة، وهمست، وتنفسها يلامس وجهه برفق:

"When love whispers, let your soul answer."

"عندما يهمس الحب، دعي روحك تجيب".

وقبل أن تزيب كلماتها صموده، احتضنته برفق، كأنها تمنحه الأمان

قبل أن يسمح لنفسه بالاستسلام.

ارتجف جسده كله كعصفورٍ باغتته العاصفة، وانصهرت رهبة

اللحظة بين دفء أحضانها، حتى بزغ الصباح.

استيقظ قبل آية، ظل يتأمل وجهها النائم، لا تحمل ملامحها

ذنبًا، لكن قلبه كان مُثقلًا بشيء لا يُحتمل. ما حدث الليلة الماضية

لم يكن مجرد ضعف، بل كان انكسارًا حادًا في كل ما آمن به.

هل كان راغبًا؟ نعم.

هل قاوم؟ حاول.

لكنه الآن يعرف يقينًا :

"أن يخطئ مرة... ضعف، أما أن يبقى هنا ليكرر ما لم يكن يجب

أن يحدث، أن يعتاد، أن يسقط أكثر... لا."

بادر الجميع، في حركة مكشوفة، بمغادرة الشقة إلى المطعم

المجاور لتناول الإفطار، تاركينه وحده مع آية وهي تتأمله في صبا

وامتنان، أما هو فكان احساس الذنب يجتاحه، وما أن أغلقوا الباب خلفهم، حتى أسرع بارتداء ملابسه واستعجلها للحاق بهم، فاستشاطت غضبًا؛ فالرجل الذي اقترب منها بالأمس بدا وكأنه يبتعد اليوم بخفة.

بعد تناول الفطور جميعًا في المطعم، انفرج وجه آية بابتسامة باهتة، ثم نظرت إليه وسألته بحزن، وهي تشير إلى رفيقاتها:  
"من منهن تعجبك؟"

- هزّ رأسه بدهشة، وقال بصوت خافت:  
"إنتِ..."

- أخفت تعجبها خلف ابتسامة صغيرة، وقالت بخجل:  
"لم لا؟ في الصباح"

- انتبه فجأة لما قالت، وردّ بهدوء:

"لا أريد أن أنزلق وأتمادى فيما يغضب الله".

- ابتسمت ابتسامة غامضة، وسألته بصوت خفيض:  
"وما الطريق كي لا نُغضب الرب؟"

في تلك اللحظة، أدرك أن الأمر تجاوز حدود الكلمات العابرة، تنفس بعمق ثم قال مترددًا:

"الزواج..."

- نظرت إليه بحب، وعيناها تنطقان بلغة لا يفهمها سواهما، وهزّت رأسها ببطء، وقالت كأنها تُسلم قلبها لا قرارها:

"أوافق على الزواج منك".

- تأملها طويلاً، ثم همس:

"بس... أنا لسه بدرس".

- ربّيت على كتفه برفق، وكأن يدها تُسكّن فيه كل حبّ العالم، ثم همست:

"مش مهم... العمر قصير."

- أمسك يدها بلطف وقال بصوت متهدج:

"بس أنا... مش جاهز. لسه طالب، ولا شقة مستقلة، ولا شغل، ولا حتى مستقبل واضح."

- ابتسمت بثقة وهدوء:

"أنا ما قلتش إني بدوّر على شقة... أنا بدوّر على شريك. مش مهم تملك إيه، المهم تكون مع مين."

- نظر محمود إلى عينيها بعمق، كأنه يتأمل هاويته الداخلية، ثم همس:

"أنا عمري ما حلمت بحاجة بالشكل ده..."

- مدت يدها ناحيته، كأنها تمد له عهدًا لا يُقال بالكلمات:

"نبدأ من هنا... من اللحظة دي."

في تلك اللحظة، ارتجف قلب محمود بين ذكرى ندى وظل آية.

مع ندى، لم تكن الخيبة نابعة من جفاء قلبها، بل من عالمٍ ضيقٍ فُرض عليها قبل أن تختار. لم تكن حرّة لتتتمرّد على الأعراف، فالعادات في مصر- لا تُمهّل الفتاة كثيرًا قبل أن تُطالب بالزواج، وكأن عمرها علبة لبن لها تاريخ انتهاء.

لم يكن الزواج بالنسبة لندى حبًّا وحرية، كما نشأت عليه آية، بل كان حلًّا، وأحيانًا فرضًا، وأحيانًا أخرى... هروبًا من المجهول. أما الحرية التي تحظى بها الأوروبيات، فلم تُفتح يومًا للفتيات مثل ندى.

ربما أرادت أن تنتظره، لكنها خافت من فوات قطار المجتمع، وخافت أكثر من أن تظل معلّقة برجلٍ يخطو خطواته الأولى في بلادٍ تُحمّله عبء التكاليف، وتطالبه في الوقت ذاته بالمساواة.

أما آية، فكانت على النقيض تمامًا... كانت تراه كما هو، لا كما ينبغي أن يكون. لا شروط، ولا بروتوكولات، ولا خوف من الزمن. كان يشعر معها وكأن ثقل الأعوام يُزاح عن صدره، وكأن العالم يمنحه فرصة ليكون ذاته دون أن يُمتحن أو يُحاسَب. ندى كانت تُثقل قلبه بحواجز الخوف والإثبات الزائف، بينما منحته آية إحساسًا بالحرية المشتركة، دعوة لأن يعيش لا أن يبرر، لأن يحلم لا أن يثبت استحقاقه.

وفي تلك الوقفة الصامتة، أدرك محمود أن قلبه بدأ يميل إلى ضفةٍ أخرى... ضفةٍ لا تُقاس بما يملك، بل بمن يستطيع أن يمشي معه الدرب دون خوف

تمت

## يقين الأصدقاء.

تزوجت أمل وهي لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، من محمود، ذلك الشاب المُلقب بين الجميع بفتى الأحلام، والذي لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين.

كانت أمل امرأة جميلة بطريقة لا تُقاس بالمقاييس المعتادة. جمالها لم يكن في تفاصيل وجهها فقط، بل في الطريقة التي تنظر بها إلى الحياة، في الصبر الذي يسكن صوتها، وفي ذلك النور الخافت الذي يضيء ملامحها حين تبتسم.

تحمل اسمها في روحها قبل أن يُكتب في شهادة ميلادها؛ ملامحها رقيقة كنسمة صيف هادئة، ووجهها يشرق رغم الغيوم التي عبرت فوقه... فقدت الأب قبل أن ترى النور، فكان اليُتم يسكنها بلا دموع، ابتسامتها خجولة، لكنها حين تظهر، تُشعرك كأنها وُلدت لتضيء العتمة، وصوتها هادئ لكنه مشبع بطاقة صبرٍ عميق؛ كأنها اعتادت الحديث مع روحها أكثر مما اعتادت مخاطبة الآخرين.

تؤمن أن المعجزات تُستجلب باليقين في رحمة الله؛ ذلك الإيمان العميق الذي يفتح الأبواب المغلقة، ويُبدد جدران المستحيل.

أما محمود، فكان رجلاً يجمع بين الصلابة والحنان، ملامحه حادة قليلاً، في صمته رجولة، وفي حضوره طمأنينة، وكأنك حين تجلس بقربه تتكى على جدارٍ من أمان. محامياً ناجحاً، لكن نجاحه لم يُطفئ تواضعه، بل زاده قرباً من الناس وإنسانية، وأكثر ما ميزه أنه كان يرى في أمل عالمه كله؛ لم تكن بالنسبة له زوجة فقط، بل وطنًا يلوذ به من قسوة الدنيا، ومراةً

يرى فيها أجمل ما فيه.

كان زواجهما مفاجأة للجميع، حتى الجيران الذين لم يلحظوا يومًا ما كان ينمو في الظل، رغم النواذ المفتوحة والشرفات المتقابلة.  
سألوها كثيرًا بدهشة:

"كيف قبلتِ به؟ وهو يحمل على ظهره تاريخًا طويلًا من العلاقات العابرة؟"

كانت تكتفي بابتسامة غامضة، ابتسامة تشبه سرًا تحتفظ به لنفسها، وكأنها تقول دون أن تنطق:

"القلب أذكى منكم جميعًا."

سافر الزوجان إلى الغردقة لقضاء شهر العسل، ثم إلى الأقصر حيث تعيش قريبة أمل مع شقيقها، اللذان فاتهما قطار الزواج، فرحوا بهما، رغم ما كان يعتصر قلب القريبة من شعور الفقد؛ فقد قالت يومًا لوالدة أمل:

"أنتِ محظوظة... على الأقل عندك بنت زينت لك الحياة".

تسلّت العيون إلى تفاصيل حياتهما، والألسنة تهمس في الخفاء، ورغم الحب الكبير، مرّت السنوات بلا إنجاب، ربما كان اختبارًا لصبرهما، أو تلميحًا من القدر إلى معنى اليقين الحقيقي... غير أن غصة الحلق كانت لا تُحتمل مع صدى ضحكات الأطفال في الأعياد، ومع مشهد حقائق المدارس الصغيرة الملونة.

سنوات مرت... بيت مليء بالحب، لكنه فارغ من أصوات الأطفال. كانت تُدعى إلى المناسبات، تُسمّى وتُكرّم، تبتسم وتبارك، وتدعو للمولود بالصحة والعافية، ثم تنسحب بهدوء، تلوذ بصمتها بعيدًا عن أعين لا ترحم. كل خبر حملٍ لقريبة يترك ندبة جديدة في قلبها، وكأن عدم الإنجاب جعل منها مرآة للقلق، لا للفرح.

حينما تقابلت صدفة مع أحد الجيران عند حماتها، الأقل جمالاً منها، جالسة وعلى يديها طفلها الرضيع، أقبلت عليها مرحبًا، لكنها لم تنهض من مقعدها، متحججة بوجود رضيعها بين يديها.

قالت بلهجة هادئة:

"معلش، مش قادرة أقوم لك".

أومأت ندى بابتسامة بسيطة، هادئة، لم يظهر منها شيء من القهر الذي شعرت به في الداخل. ومع ذلك، لم يخفت الدعاء في قلبها، ولم يخبو الأمل، لم تسأل الله:

"لماذا؟"

ترفع يديها في الليل، وتقول لنفسها بصوت خافت:

"يا رب... أنا عارفة إنك كريم... وعارفة إنك شايف دموعي... أنا على يقين أنك لن تخذلي".

ذلك اليقين كان قوتها، الرداء الذي ترتديه حين ينهكها الانتظار، والسند الذي تتكى عليه حين تزدحم الكلمات في قلبها، تؤمن أن الله لا ينسى، وأن كل دعوة تُقال في الليل تُكتب في النور. وفي كل مرة تسمع فيها ضحكة طفل، كانت تبتمس وتهمس في سرّها:

"يمكن مش دلوقتي... بس أكيد في وقتك يا رب".

صارت زيارات الأطباء جزءًا من روتين حياتهما، وتجارب الحقن المجهري تتكرر بلا توقّف، لكن شمعة الأمل لم تنطفئ يومًا.

حينها جاءت "نسمة" صديقة عمرها لتدعوها إلى أداء العمرة كان حضور نسمة مختلفًا وجهها مضيء كفجر صادق، وابتسامتها كخيوط نورٍ يبّدد غيوم الروح، شعرها الحريري الأسود ينسدل على كتفيها بهدوء، وعيناها الواسعتان تشعان حنانًا لا يُخفى، لم تكن مجرد صديقة... كانت كنجمة

تهديهما في عتمة الطريق، تبتّ الطمأنينة وترزع في القلوب يقينًا بأن المعجزات قادمة لا محالة.

لم تكن دعوتها لأمل مجرد عرضٍ عابر، بل كانت امتدادًا لقلبٍ يعرف قيمة الصداقة ويعيش من أجلها، تؤمن أن الخير لا يقف عند حدٍّ، وأن السعي للشفاء عبادة أخرى لا تقل قدسية عن الطواف حول الكعبة... فقد جمعتهما طفولة واحدة، أحلام صغيرة تقاسماها في الأزقة الضيقة وأسرار لا يعرفها سواهما، كأن حياتيهما خيطان متشابكان في نسيج واحد.

وبعد : أداء العمرة، وبينما ما زال عقب مكة يسكن قلبيهما، عادت خطواتهما تحمل رجة الأمل من جديد. لكن ما إن خرجتا من عيادة الطبيب حتى خيم الصمت على المكان، رنّ صدى كلمات الطبيب في أذن أمل كخنجرٍ بارد لكنه انغرس في قلبها بهدوء غريب... كأنها كانت تعرف الجواب مسبقًا:

"فرص الحمل... تكاد تكون معدومة".

جلست نسمة إلى جوارها، تراقب ملامح وجهها المشرق رغم العاصفة التي تتخيلها داخله، والقلق يزحف في عينيها بلا هوادة. مدّت نسمة يدها، وضغطت على أصابع أمل برفقٍ حنون، وهمست بصوتٍ مرتجف:

"أوعدك مش هسيبك... هنحارب مع بعض لآخر نفس، لسه في دكتور دبوش في فرنسا... مشهور جدًا بعلاج الحالات المستحيلة... هنروح له... لازم نجرب".

- ابتسمت أمل ابتسامة هادئة كخيطة نورٍ يتسلل بين الغيوم، ورفعت عينيها المبللتان بوميض اليقين قائلة:

"أنا مش محتاجة أجرب علشان أصدق يا نسمة... أنا مؤمنة... ومتيقنة

كمان، الدكتور يحسبها بعقله... وأنا بحسبها بقلب مؤمن برحمة ربنا".  
ثم أغمضت عينيها قليلاً كأنها تستدعي السكينة من أعماقها، وتابعت  
بصوتٍ أقرب إلى الهمس:

"أنا ما بشوفش في كلام الدكتور نهاية... ده مجرد باب اتقفل... وربنا دايمًا  
بيخلق أبواب تانية مش بنشوفها، يمكن البشر يشوفوا المستحيل... لكن  
رحمة ربنا مالهاش حدود".

- رفعت نسمة عينيها نحوها، وفي قلبها شعور غريب لم تعرفه من قبل؛  
لأول مرة تدرك أن صديقتها أمل لا تبحث عن الأمل في الخارج... بل  
تحمله بداخلها كنبع لا ينضب.

تهتدت بأسى ، وأمسكت يد أمل أكثر، وهمست بصوتٍ مخنوق  
بالعاطفة:

"أنا عندي أمل... وإنّ يقينك هو اللي بيخليني أتمسك بالحلم أكثر  
عشانك".

- ابتسمت أمل وربّتت على يدها برفق، وصوتها يقطر حنانًا وإيمانًا:  
"طالما ربنا زرع في قلبي شوق للأومة... يبقى هو عارف إن ليا نصيب،  
يمكن مش النهارده... يمكن مش بكرة... لكن في وقته هو... هيبجي الفرح".

- حينها، رفعت نسمة عينيها نحوها من جديد، وأمسكت يدها بقوة أكبر  
كأنها تتشبث "بيقين" أمل أكثر من تشبثها "بأملها" هي، وقالت  
بعزمٍ يملأه الإيمان:

"يبقى نسافر فرنسا... مش لأننا خايفين من اليأس... لكن عشان نستقبل  
المعجزة وإحنا جاهزين".

في تلك اللحظات، رأت أمل، في نسمة ظلًا من رحمة الله في حياتها،  
وتمددًا لإرادته الخفية؛ فاليقين الذي كانت تحمله في قلبها بأن الله لن

يخذلها، وجد في نسمة يداً تمسك بيدها كلما تخلخل الطريق تحت قدميها.

\*\*\*

في العيادة، جلس الطبيب الفرنسي متأملاً التحاليل، أدار قرص العملية السابقة ببطء، حدّق طويلاً في الشاشة قبل أن يرفع رأسه وينطق بكلمتين هزّتا كيانهما:  
" الحالة صعبة".

ابتسمت، أمل وكأنها تخفي يقينها وراء ابتسامتها، بينما نسمة شهقت بصمت، عضّت على شفتها السفلى، وكأنها تحاول أن تُخفي ارتباكها عن صديقتها، مدّت يدها بخفة تبحث عن يد أمل، وما إن لامست أصابعها حتى شدّت عليها بقوة خفية، قوة تشبه عهداً صامتاً:  
"لن تسقطي ما دمّت هنا".

لم يكن قلب نسمة صلّباً كما تتظاهر، بل كان يختلج من الداخل، وكل خفقة فيه دعاء صامت لا يسمعه إلا الله. بينما وسط العتمة انبثق في روح أمل، شعاع ساطع من اليقين، عيناها ظلّت ثابتتين، كأنهما تبحثان عن بصيص أمل خلف حدود المنطق. همست في سرّها:  
"أنا واثقة... يا رب... هحمل... أنا واثقة في رحمتك".

ثم رفعت بصرها إلى الطبيب، حدّقت في وجهه طويلاً، وأغمضت عينيها كأنها تحمي قلبها من السقوط، قبل أن تهمس في صمتٍ لم يسمعه سواها:

"من أنت... لتقرر مصيري؟"

كانت تعلم أن كلمات البشر لا تغتير ما كتبه الله.  
قطع شرودها صوت الطبيب وهو يطلب منها الدخول للكشف كجزء من

روتين العمل فلا يوجد جديد يغير المعادلة .  
مشت بخطوات هادئة، كأنها تخطو نحو قدرها بخفة من يعرف أن الله  
معه، تحمل في قلبها يقيناً لا يتزحزح، وكأنها تُخاطب الكون كله بصمتٍ  
وطمأنينة:

"أنا مستعدة... أياً يكن الجواب"

إلى جوارها كانت نسمة، تتنفس ببطء، وفي قلبها أمل يضيء كشمعةٍ في  
عاصفة، تحاول حمايته بكل قوتها.

كانت أمل تمشي بيقين، بينما نسمة تتبعها بأمل.

انحنى الطبيب نحو الشاشة، عينيه تتنقلان بين المؤشر والبيانات...  
حاجباه ارتفعا فجأة، وعروقه عند صدغيه نبضت بقوة، رفع رأسه ببطء،  
كأن الكلمات ثقيلة جداً على لسانه، ثم نظر نحو نسمة، ثم إلى أمل، وعاد  
بعينه إلى الشاشة مرة ثالثة...  
الوقت توقف.

حتى صوت الجهاز بدا بعيداً... أبعد من أن يُسمع.

ثم قالها وصوته مبسوح، كأنه هو نفسه غير مستوعب:

" معجزة... مدام نسمة... معجزة... صاحبتك حامل!"

كلمة "حامل" ارتطمت بجدران الغرفة قبل أن تصل إلى عقل أمل، ظلّت  
نسمة تحدّق في وجهه، عيناها تفتشان عن مزحة خفية عن خطأ في  
الفحص، عن شيء... لكنه أكمل بابتسامة ناعمة:

" إنْتِ حامل... وفي توأم كمان!"

انفجر الحاجز بين الحلم والواقع دفعة واحدة.

شهقة مكتومة... ثم دمعة... ثم ضحكة مرتعشة.

احتضنتها نسمة، وانهمرت الدموع كالمطر فوق كتفيها، بينما أمل تتمتم

بصوت متقطع:

"يا ما أنت كريم يا رب... يا ما أنت كريم!"

الطبيب ظلَّ يحدِّق في الشاشة مذهولًا، وعيناه لا تفارقان تفاصيل الصورة التي أمامه، ثم همس بدهشة صادقة، وكأنه يتحدث إلى نفسه أكثر مما يخاطب من حوله:

"في الأسبوع التاسع... وكلُّ جنينٍ داخلَ كيسه الجنينيّ ... حاجة مش مصدقها لحد دلوقتي".

كانت نبرته تحمل مزيجًا من العلم والذهول، كمن اكتشف معجزة صغيرة في قلب لحظة عادية. تراجع خطوة، وكأن وقع الخبر يحتاج مساحة أوسع ليستوعبه، وأضاف بابتسامة خفيفة فيها شيء من التودد:

"زوجك عربي؟ هيفرح... لأنهم أولاد."

في تلك اللحظة، شعرت أمل للمرة الأولى أن جسدها لم يخونها يومًا ... بل كان يحتضن الحلم في صمت، يخبئه لها حتى يحين الموعد الذي كتبه الله.

\*\*\*

خرجت أمل من العيادة وهي تحتضن نسمة كمن يخشى أن تسقط منه البشارة قبل أن تصل إلى قلب محمود، عينها ما زالتا تلمعان بدموع لم تجف، خطواتها سريعة، متقطعة، وكأن الأرض لا تتسع للخبر الذي تحمله.

وقفت للحظة، التقطت أنفاسها، ثم أخرجت هاتفها ويديها ترتجفان، ضغطت على اسم محمود... قلبها يسبق أصابعها.

رنّ الهاتف مرتين فقط، قبل أن يأتي صوته المرهق:

"أمل... خير؟ في إيه؟"

لم تستطع أن تقول كلمة... شهقتها سبقت صوتها، ثم همست  
بنبرة مرتجفة، أقرب إلى البكاء منها إلى الكلام:  
" محمود... أنا... أنا حامل... بتوأم يا محمود".  
صمت.

لم تسمع أي رد، فقط تنفّسه العميق، المتسارع، كأنه يركض في  
مكانه، ثم فجأة جاء صوته، مبحوحًا، متكسّرًا كطفل يبكي لأول  
مرة:

" إيه... إيه اللي بتقولي ده؟

أمل... بجد؟ توأم؟! "

كانت دموعه تسبق كلماته، وصوته ينكسر—وهو يكرر كأنه لا  
يصدق:

"يااه يا رب... أخيرًا... أخيرًا يا أمل! "

ساد صمت قصير، يتخلله شهقاته المتلاحقة، ثم أطلق ضحكة  
عالية، مختلطة بالبكاء، كأن صدره أفرغ حمل سنوات من الدعاء  
والانتظار... أسند جبينه إلى مقود السيارة، ورفع يده للسماء دون  
وعي، وهو يهمس:

" الحمد لله... يا رب لك الحمد... يااه يا أمل بعد تسع سنوات! "

تذكر كل الليالي الطويلة، كل دمعة سقطت في الخفاء، كل مرة عاد  
فيها من عيادة الطبيب ممسكًا بيدها يمشيان في صمت، يخفيان  
الألم وراء ابتسامة متعبة... دعاءه عند زيارة كل مريض، وصدقاته  
للمحتاجين، ودفاعه عن المظلومين لكن اليوم... انتهى الانتظار.

اليوم أصبح الحلم حقيقة، بعد كل هذه السنوات من الانتظار والصبر،  
بدأت الحياة تنبض داخلها بشكل واضح، لتتحول الدعوات والدموع إلى

حقيقة ملموسة...

في الأسبوع الثالث عشر من الحمل، بدأ التوأمان يشعران ببعضهما، لم يكن الأمر مجرد حركة، بل تلامس فيه دهشة، فيه بداية وعي، داخل الكيسين المتجاورين، كانا يعيشان في فراغ دافئ، يسمعان صوت الأم، ويشعران بنبضها كأنها الكون كله.

قال التوأم الأيمن، بصوت داخلي لا يسمعه أحد:

"هل سنظل هكذا؟ في هذا السكون، نأكل ونلعب؟"

- رد الأيسر، وهو يلف جسده كمن يحتضن فكرة:

"أكيد في شيء آخر... هذا لا يمكن أن يكون كل شيء".

- ابتسم التوأم الأيمن وهمس:

" لكننا سعداء هنا... لا نحتاج شيئاً آخر".

- هز التوأم الأيسر رأسه وقال:

" لا أعتقد... تذكر، كنا نعيش بلا أصوات، ثم فجأة سمعنا ... صوتاً غريباً

لكنه جميل. عندما أسمع، أشعر بالأمان.

- قال التوأم الأيمن متأملاً:

" ربما سنظل نسمعه إلى الأبد".

- التوأم الأيسر اعترض، وقال، وعيناه مغمضتان كمن يرى ما لا يُرى:

" لا... في داخلي يقين أن جلوسنا هنا مؤقت".

- سأله التوأم الأيمن:

" وما دليلك؟"

- رد التوأم الأيسر كمن اكتشف سرّاً:

" أجسادنا تكبر كل يوم... نحن نتغير، وهذا يعني أن هناك باباً آخر ينتظر

أن يُفتح".

عادت أمل إلى القاهرة بصمتٍ يشبه الهمس، وكأن الخبر لا يُقال، بل يُحفظ بين محمود ووالدتها ونسمة فقط، أهل محمود كانوا يشعرون بشيء، لكنهم لم يصرّحوا، كانوا يخشون أن ينطقوا، أن يفسدوا الصفو، يسرون على أطراف الحذر.

في مصر، كانت تعليمات الطبيب واضحة:

"هذا الحمل عزيز... يحتاج راحة تامة، واهتمام بالغ بالتغذية".

الجميع انصاعوا، كأنهم يحرسون حلمًا هسًا، لا يُحتمل كسره.

وفي كل ليلة، كانت أمل تخلد إلى فراشها، تتحسس بطنها، تقرأ آيات من القرآن، تحصن أبناءها بصوتٍ خافت، فيه رجاء ويقين، تؤمن أنهم يسمعون، أنهم يتغذون على الكلمات، كما يتغذون على الغذاء. ... أنهم هناك، ينمون في صمت، يسمعون صوتها، ويحفظهم الله في سعة رحمته.

\*\*\*

في الظلام الدافئ، قال التوأم الأيمن وهو يمد يده نحو أخيه:

"هل فكرت يومًا... ليه إحنا هنا؟ وليه بنكبر؟"

- رد التوأم الأيسر بهدوء:

"مش عارف... بس في حاجة بتدفعنا نكبر ونسمع ونحس... في خطة مش إحنا اللي حاطينها".

قال التوأم الأيمن مترددًا:

"بس إحنا مش شايفين حاجة... ولا حد بيكلمنا... كل اللي حوالينا سائل وضوء خافت... مفيش دليل".

- ابتسم التوأم الأيسر بثقة:

"مش لازم أشوف عشان أصدق... بنسمع صوت بيطمنا، بيضحك أحيانًا، ويببكي أحيانًا... ده كفاية".

- ثم سأل التوأم الأيمن بخفوت:  
"يعني ممكن تكون في حياة بعد دي؟  
بعد ما نخرج من هنا؟  
طب لو العالم ده موجود... ليه إحنا مش شايفينه؟"  
أجابه التوأم الأيسر مبتسمًا:  
"زي ما في ناس برا مش فاهمين اللي بعد الدنيا... إحنا كمان مش فاهمين  
اللي برا... بس كِله موجود".

\*\*\*

في الأسبوع السابع والعشرين، وبينما كانت الخادمة تسير بجوارها، تعثرت  
أمل فجأة وسقطت على الأرض، الارتطام لم يكن عنيفًا، لكنه كان كافيًا  
ليهز الرحم من الداخل..  
الجنين الأيمن كان الأقرب إلى جدار الرحم، فحدث تمزق في المشيمة،  
وانفجارًا في الكيس الأمنيوسي.  
داخل ذلك الظلام الدافئ، شعر التوأم الأيمن بانقباضٍ مفاجئ، كأن الهواء  
يُسحب من حوله. همس بصوتٍ داخلي، مرتجف:  
"أشعر بالاختناق... كل شيء يضيق".  
التوأم الأيسر انتفض، حدّق فيه، شعر برعبٍ لا يعرف له اسمًا، ثم قال:  
"لا تغمض عينيك... لا الآن، لا تتركني وحدي".  
- في الخارج، فاقت أمل من صدمتها، شهقت، ثم صرخت. محمود حملها  
بين ذراعيه، يركض بها نحو المستشفى، وأمل، رغم الألم، وضعت يدها  
على بطنها، تهمس برجاءٍ يشبه الصلاة:  
"لا تترك أخوك... تثبّت به، ورّع الأنفاس بينكم".

- داخل الرحم، اقترب التوأم الأيسر من أخيه، تلمّسه، كأن اللمسة يمكن أن تُعيد النبض. قال له بصوتٍ فيه رجاءٍ ويقين:  
"أنا سامع صوت بيطمّنا... في يقين جوايا إنك هتفوق، بس خليك معايا".  
التوأم الأيمن أغمض عينيه، دار بجسده بحركة لا إرادية، كأن روحه تبحث عن مخرج.

ومن الخارج، كانت أمل تصرخ، كأنها تحاول أن تُعيد تشكيل القدر، مدّت يديها المرتجفتين نحو بطنها كأنها تُمسك بالحياة قبل أن تفلت، ثم صاحت بصوتٍ ممزق، يعلو فوق كل الأجهزة والقلوب المرتجفة تبكي،  
تتوسل:

"لا تسيب أخوك... "

كانت كلماتها ترتجف في الهواء تتكسر بين شهقاتها كأنها تصارع لتصل إلى قلبه قبل أن يخذلها القدر  
دبت قوة خفية فمال التوأم الأيسر بكيسه ، بكل ما أوتي من قوة، كأن جسده يحاول أن يوقف النزيف، أن يخلق توازنًا جديدًا، ثم همس لأخيه،  
بصوتٍ يشبه الوعد:

"انظر لي... هناك عالم آخر في انتظارنا، لازم نشوفه سوا. أنا مش هخرج من غيرك".

وفي أعماقه، كان يسمع صوتًا واضحًا، عميقًا، مطمئنًا، كأنه يأتي من مكان لا يُرى، لكنه يُحس:  
"منتظركم... معًا."

\*\*\*

في غرفة العمليات، كانت الأنفاس تُحسب، والقلوب تُعَلَّق على لحظةٍ لا تُشبه أي لحظة. أمل، في ثباتٍ عميق، جسدها ساكن، لكن روحها كانت في مكانٍ آخر، تحوم كأنها حارسة لطفليها، ظلت تهمس للتوأم الأيسر، بصوتٍ لا يسمعه سوى القلب:

" خليك جنبه.. خليك انتوا الاتنين عايشين بالله عليك، يا محمد، ما تسبّش يحيى لوحده "

كلماتها لم تكن مجرد رجاء، بل كانت وصية، أمرًا داخليًا محفورًا في أعماق الروح.... وفجأة... كأن الجنين استجاب لنداءٍ أزلّي، ارتجف جسده الصغير، وانكمش في كيسه، ثم دار بكل قوته، تاركًا فراغًا كافيًا لأخيه الأيمن، كي ينزلق نحو الحياة..

في الخارج، ارتفعت وتيرة الأجهزة، وارتسمت على وجه الطبيب دهشة ممزوجة بإعجاب، كأن شيئًا خارقًا قد حدث. أما نسمة، التي كانت تراقب من خلف الزجاج، فقد أغمضت عينيها للحظة، ابتسمت، وعيونها مبللة بدموع دافئة ... فهي على يقين أيضًا أن المعجزات لا تأتي إلا لمن يؤمن بها.

كان محمود واقفًا، يحدّق في باب غرفة العمليات، ثم فجأة، اخترق الصمت صوت صراخ طفل... ارتجف قلبه، وانهارت دموعه، لا يعرف إن كانت فرحًا أم خوفًا، أم كلاهما. لكن الصمت عاد، طويلًا، ثقيلًا، كأن الزمن توقف. ثم... جاء الصوت الثاني.

صرخة أخرى، مختلفة، كأنها تقول:

"أنا هنا... لم أتركه، ولم يتركني "

انهار محمود على الكرسي، وغطى وجهه بيديه، وفي الداخل، كان الطبيب يبتسم، ويهمس للممرضة:

"ما نزلش إلا بعد ما طمن على خروج أخوه."  
وفي رحم الحياة، كانت أمل تفتح عينيها، تتنفس بعمق، ثم نظرت إلى  
السقف كأنها ترى ما لا يُرى، وهمست لنفسها، بصوتٍ يشبه النشيد:  
"كنتُ مؤمنة أن اليقين بالله هو الباب الذي تُفتح بعده كل الأبواب  
المغلقة... وكنتُ على يقينٍ أنهما سيخرجان معًا."

تمت - بفضل الله

(٣)

## الحذاء

ضاقَت أنفاسه وتلاحقت دقات قلبه عند عتبة محل الأحذية وكأن الأرض نفسها تنبش خطواته القديمة، وتعيد بعث ذكرى لم يستدعها.. لحظة الوقوف بين الأحذية تفتح أبوابًا من ماضٍ لم يُغلق، تسحبه بقوة إلى طفولته البعيدة دون استئذان.

ورغم مظاهر الثراء التي تحيطه، والحياة الفاخرة التي يعيشها، بقيت هذه المهمة عصية على الترويض، لا يملك أن ينيب فيها أحذاءً، وكأن اختيار الحذاء هو اختبار ذاتي تُحركه ندبةٌ في عمق قلبه، لا تُشفى. فالخدم، والسكرتيرة، والوقت المضبوط بالدقيقة... كلهم يتلاشى حضورهم عند هذا الطقس الذي لا يُعفى منه أحد، فهي واحدة من الطقوس التي لا يُعفى منها أحد... حتى أثرياء العالم يشتررون أحذيتهم بأنفسهم.

خطا ببطء، يتأمل الواجهة كمن يقرأ صفحات قديمة طواها الألم، يحاول عبثًا طردَ ذكرى طفولته كلما فُكّر في اقتناء حذاء جديد.

كان صغيرًا حين أُرسِل، فور انتهاء سنته الدراسية الأولى، إلى بيت جده وجدته في "المحلة الكبرى"، ليحظى أشقاؤه بجو دراسي خالٍ من شقاوته. وهناك، اصطحبه جدّه ذات صباح إلى محل الأحذية، وقعت عيناه على صندل بني، بدا كأنه يخصه، كأنه يعرفه، لكن الجد أصر على شراء صندل أبيض، ضيق لا يرحم.

اعترض الطفل، قال بحرقه:

"الصندل ضيق، مش قادر أحرك صوابي."

- لا حياة لمن يُنادي، أصر الجد بعينين لا تعرفان اللين.

بكى، صرخ، وتشبث برغبته في الصندل البني الأوسع، لكن الجد لم يلتفت إليه، سحب من يده صندله القديم، ووهبه لطفل حافٍ صادفهم على الطريق.

جرّه الجد من يده، والوجع يعثر قدمه، والمشهد يرسخ في قلبه كأول طعنة في ذاكرة لا تشفى.

كانت المحلة الكبرى تستقبله في كل صيف بأذرع الخالات المفتوحة، بروائح الملوخية على نار هادئة، وضحكات أبناء العم والخال تتسلل من وراء الأبواب، لكن خطواته كانت مثقلة... ليس بالحنين، بل بالصندل الضيق الذي حاصر قدميه كما حاصر قلبه الصغير.

دخل بيوت الأحباب بقدمين متألمتين، تتعثر فرحته بلعبة هنا، أو جري هناك، يُراقب الأطفال يلعبون، فيما هو يجلس متكئاً على الحافة، يعتصر الصندل بيديه كمن يحاول فك قيده... دون جدوى.

ثم جاءت زيارة مصنع جده للنسيج، بصحبة خاله، تلك البقعة التي تنسج الخيوط كما تنسج الذكريات.

البنات العاملات يعملن تحت ضوء النيون، تتقاطع الأيدي وتلتف الخيوط في صمتٍ آلي.

وفي لحظة خاطفة من الغضب المكبوت، ومن قلب طفل لم يتجاوز السابعة، تفجّرت صرخة كالرصاص في ممر المصنع:

"اشتغلوا يا ولاد الكلب!"

جمد الهواء، انقلبت الوجوه.

لكن الطفل لم يدر أنه بصيحته تلك، لم يكن يُسيء إلى العاملات ... بل كان ينتقم بصوتٍ عارٍ من الجد الذي أخضعه لذلك الصندل، من الشعور بالضعف، من كل لحظة صمت فيها مجبراً.

كانت تلك اللحظة أول تمرد... فوضوي، غير واعٍ، لكنه صادق.

\*\*\*

منذ تلك الواقعة التي غاص فيها الألم إلى أعماق قدمه الصغير، بدأ الطفل رحلته نحو الاتزان كمن يسعى لترميم التصدع في ذاته. لم يكن الأول في دراسته، ولم يكن الأخير... لكنه كان الثابت، المتزن، يحسب خطواته كما يحسب الزمن بالدقائق.

حين اختار دراجته، أصر أن تكون مناسبة لطوله بدقة، رافضاً نصيحة الأم بشراء مقاسٍ أكبر تماشياً مع نموه المستقبلي؛ فقد تعلم أن الانتظار على ضيقٍ مؤلم لا يصنع راحة، ملابسه دائماً تضبط نفسها على جسده كأنها تُخاط له وحده، لا تزيد ولا تنقص، وساعته تلف معصمه بأريحية صارمة، تدق الوقت كما يدق قلبه... منتظماً، بلا انحراف.

مرت سنوات كأنها خطوط مستقيمة على دفتر حياته، تخرج من الجامعة، وارتدى بدلته الرسمية كما يرتدي يقينه، أصبح رجل أعمال يُحسب له وقته، وتُحسب له خطواته.

اختار زوجة جميلة، رشيقة، قريبة لطوله، من نفس الوسط الاجتماعي، لا تضطرب معها صورة الاتزان.

مواعيده محكومة بالدقة، وأبناؤه وُلدوا بفارق سنتين عن بعضهم، وكأنهم أرقام في معادلة لا تقبل الخطأ، حتى الفوضى في بيته كانت لها جدولٌ، وكل نبضة في حياته تُمثل انتقاماً هادئاً من طفولة ضيقة المقاس.

\*\*\*

مع توسع مشاريعه وتراكم مسؤولياته، انزلت دفة القيادة من يده تدريجياً، لم يشعر بذلك في البداية، كان يرى في زوجته يدًا حانية تدبّر الغياب، رويداً رويداً، أصبحت تُدير كل شيء، حضورها ازداد حتى

أصبحت هي الربان الحقيقي للسفينة:  
هي من تختار المدارس، تحدد الألعاب، تضع جدول الرحلات الشتوية  
والصيفية، وتقرر من يُعيّن من الخدم والسائقين، ومن يُرُفد. من يُستبقى  
من المدرسين الخصوصيين ومن يُطرد.  
شعر باحتلالٍ ناعم، سيطر على كل تفاصيل يومه.  
في لحظة تأمل صامتة، وجد نفسه لا يملك من أمره سوى الموافقة،  
ماكينة "ATM" متحركة، يزوّد البيت بالمال، لكنها لا تُستشار.  
وحين قررت زوجته الانتقال إلى حيّ راقٍ بعيد عن مقر عمله، لم يستطع  
الاعتراض. قال لنفسه:  
"من دونها تضيق الأسرة".  
دون أن يدرك أنه هو من كان يضيع يومًا بعد يوم.  
جرب أن يعترض، أن يقول ولو رأيًا في تربية الأولاد، فصاحت في وجهه:  
"لما تبقى فاضي، ابقَ قول رأيك!"  
حاول مرة أخرى، فلوّحت له بورقتها الراححة دائمًا:  
"ترك الامر كله،، ومغادرة البيت.. فأنا من يدير كل شيء، ومن غيري لن  
يصمد شيء... "  
انسحب، متجنبًا هزيمةً كاملة.  
كان يعرف أنه يعيش قهراً أنيقًا، محكومًا بامرأة تحوّل الحب إلى جداول،  
والمشاركة إلى أوامر.  
مجهودها ومذكراتها وسهرها على خدمة الأولاد يرفع قامتها إلى عنان  
السماء، ومنحها سلطات الحاكم المستبد، الذي يحاول الكل أن ينجو من  
سطوته في صمت ، ومع أنه في أعماقه لم يكن يقبل القهر أبدًا، إلا أنه  
اختار الصمت... فقط من أجل الأولاد.

حتى جاء ذلك الصباح.

يوم جمعة هادئ، أمرته بصرامة:

"انزل معنا نشترى ملابس رياضية، لازم يكونوا جاهزين الأسبوع الجاي".

- لم يعلق على ما قالته، بل اكتفى بنظرة حادة.

- تغيرت ملامحها، وصاحت، وعيناها اتسعتا في انفعال:

"ولو مش عايز أو مش عاجبك... عادى ما أنا باعمل كل حاجة لوحدي،

وأنت لا تشارك في أي شيء!"

- لم يرد. فقط ارتدى قميصًا رماديًا وهبط معهم كآلة تعرف مهمتها.

وفي محل الملابس، رآها تختار الملابس لأبنائهم الثلاثة بدقة، كما يفعل

هو تمامًا، دون أن تسألهم أو تستطلع رغباتهم، والأولاد يومئون بالموافقة،

صامتين.

لم يكن في المشهد ضجيج، لكن الصمت نفسه كان عقوبة. فهو يعرف أن

الاعتراض، أو التملل عندهم يعني الحرمان من النادي، من البلادي

ستيشن، وربما الحبس في غرفهم.

فجأة، ترك محمد يدها، وركض نحو ركن الأحذية.

تبعته أمه، أمسكت ذراعه بحدة:

"مش دلوقتي... الأحذية في الآخر".

انصاع، دون كلام، لكن خطواته حملت مرارة التراجع.

اقترب منه الطفل، تشبث بيده، وقال له هامسًا دون صوت:

"تعالى معايا... أوريك أنا عايز إيه... بس شوف الحذاء ده".

أشار محمد إلى حذاء رياضي أنيق، مرتفع الثمن.

نظر إليه... أعجبه.

لكن الأم، ما إن رأت السعر، حتى صاحت:

"ده مبالغ فيه! مستحيل!"  
ثم أطاحت بالحذاء وأمسكت آخر، وألبسته إياه بقسوة.  
ترقرقت عينا مجد بالدموع.  
شعر بوخزة في صدره... في عينيه انغرست نظرة لم ترها من قبل . شريط  
عمرٍ مرّ أمامه:  
"جدّه، الصندل الأبيض، الدمعة المكبوتة، الصمت القاسي، وتلك  
الصرخة المؤجلة منذ عقود".  
مدّ يده، التقط الحذاء الأول، وانحنى به:  
"خُده، إلبسه".  
لبسه الطفل بثقة لم يعتدها... كأنما استعداد حقًا ضائعًا.  
الأم رفعت حاجبيها:  
"مش حلو... مش عملي... الأولاد هيغيروا منه".  
وفجأة... صاح في وجهها أمام الجميع:  
"سيبيه يختار حذاه بنفسه! كفاية... مش كل حاجة لازم تمشي برأيك.  
كفاية قهر. كفاية أنا!"  
سكنت المحل لحظةً غريبة... توقف الزمن بينهما، والطفل لا يزال ينظر  
إلى أبيه كمن اكتشفه لتوّه.  
هي شلّتها المفاجأة.  
أدار وجهه نحو مجد، انخفض إلى مستواه، وسأله بهدوء:  
"الحذاء ده عاجبك؟"  
أوماً الطفل برأسه، وخفض عينيه.  
ثم استدار إلى باقي إخواته:  
"الهدوم دي عجبتكم؟"

أومأوا برؤوسهم رافضين.  
تناولها منهم وأطاح بها:  
"اشتروا اللي أنتم عايزينه... لوحدكم".  
لم تتكلم، لم تعترض، فقط شهقت... كأن شيئاً انكسر فيها.  
في السيارة... كان الصمتُ مربِّغاً.  
الأطفال يتبادلون نظرات قلقة، وهي تلتفت إلى النافذة، شاردة، تحاول أن تخفي ارتباكاً ما.

\*\*\*

في صباح اليوم التالي، لم توظفه بصرامة كالعادة، بدأ التحول. لم يكن كل شيء مثاليًا، ما زالت تعترض أحيانًا، وتدير أمورًا على طريققتها.  
لكن التوازن بدأ يعود...  
والبيت لم يعد يُدار بقبضة واحدة، صار له صوت، لا يطلب الإذن، بل يقترح ويتكلم.  
بدأ يشارك الأطفال في اختياراتهم، حتى بدأوا يلتفون حوله.  
لم يكن نائمًا، بل حاضرًا.  
لم يطلب منها أن تتراجع، بل أعاد ترتيب خطواته، فبدأت تتراجع تلقائيًا.  
في أول اجتماع مدرسي، دخل بمفرده، دون أن تنتظره على الباب كعادتها.  
وفي أول نقاش بينهما بشأن معلم خاص، قال:  
"أنا هقابل الأستاذ بنفسي، ولو ما ارتحتلوش... مش هيشغل معانا".  
نظرت إليه طويلًا، ثم ابتسمت وأومات قائلة:  
"ماشي... إنت الأدري دلوقتي".  
وفي مساء الجمعة التالية، دخل غرفة مجد، فوجده جالسًا أمام لعبته، فسأله:

"لسه زعلان من ماما؟"

أجاب:

"هي كويسة... بس ساعات بتحكم من غير ما تسألنا".

ضحك الأب وقال:

"عارف".

- ثم تقرب منه وأمسك بيده، وقال بنبرة حازمة:

"ما تخلّيش أي حد، مهما كان، يجبرك على حاجة مش عايزها".

- ابتسم مجد، ثم قال في براءة:

"زي ما عملت في محل الأحذية؟ لما قلت لماما لأ؟"

- هزّ الأب رأسه وأجاب بهدوء:

"حتى ولو كانت ماما... أو حتى جدك".

تمت

## وتد الحزن الصامت

في لحظة السقوط لا نسمع صوت الودت، بل نسمع صدى غيابه في كل ما انهار حولنا" عاد مؤخرًا من الخليج، حيث قضى سنوات يعمل في الصحافة هناك، متنقلًا بين المكاتب اللامعة والملفات السياسية المعقدة، وحين وصله خبر الترقية المنتظرة في مؤسسته الأم بالقاهرة، لم يتردد، فالفرصة لا تنتظر المترددين، وإلا فغيابه قد يُفسَّر كفتورٍ أو انسحاب، عاد ليكون حاضرًا، لا لِيُستبعد.

في صباح رمادي ثقيل من صيف القاهرة، جلس إلى مكتبه الخشبي في منزله العتيق، يخطّ مقاله الجديد بخطٍ متردد. العنوان المؤقت:

"العدل الغائب خلف كواليس المحسوبة".

كانت الكلمات تتسلل ببطء، كأنها تُقاوم الخروج، أو كأنها تخشى أن تُقال في غير وقتها.... يعرف جيدًا أن الكتابة هنا ليست مكبلة كما كانت هناك؛ تدافعت الأفكار في رأسه، فواصل يسطر:

"يعيشون في ترفٍ مسعور، وأرياح تُجنى من عرق المقهورين، يختلسون قوت الشعب كأنها فضيلة، ويتبارون في سرقة الحياة، بينما تدفع الطبقات الكادحة ثمن رفاهيتهم، وتُحرمهم من أبسط الحقوق.

يستغلون الفقر كوسيلة إذلال، ويحتكرون كل الفرص في مجتمع لا يُنصف إلا ذئابه، يتلذذون برغدٍ ممول من بؤس الآخرين، ويتركون لأبناء ملح الأرض الفتات... يلتقطونه بأفواههم بمقتٍ بغيض، مضمرين لهم كل

كراهية وسوء".

- قطع حبل أفكاره صوت المذيع الجهوري يعلو من التلفاز القريب، يردد:  
"غيّرت ثورة يوليو أوضاع المصريين الاقتصادية والاجتماعية تغييرًا جذريًا،  
فكانت لصالح الأغلبية، ودعمت الطبقة التي عانت من الظلم  
والحرمان..."

- زفر بضيق، شيء في نبرة المذيع بدا له ساخرًا، كأنه يقرأ بيانًا من مسرحية  
يعرف نهايتها جيدًا... مدّ يده بعصبية فوق زر التشغيل و أطفأه بعنف كاد  
يخلع الزر، وعاد إلى مقاله ليكتب:

"التحامٌ شاقٌّ مستمرٌّ بين الذين تفيض أعينهم من الدمع حزنًا لا يجدون  
ما ينفقون، وبين ذوي الأنانية المفرطة الذين يعيشون خلف الستار  
الحديدي، يحتكرون لأنفسهم ضوء القمر ودفء السماء، القصور  
والسيارات والطائرات، ومن وراء هذا كله رصيد دسم في البنوك. كل ذلك  
لن يستأصل شأفة العلة الخبيثة والمرض الدفين، ولن يقلل عدد الذين في  
الخصيض".

رنّ جرس الباب فقطع أفكاره تمامًا.

تذكّر أن أسرته قد سافرت منذ يومين إلى بلدته لأداء واجب عزاء. نهض  
على مضض، وتوجّه إلى الباب، وما إن أدار المقبض وانفجرت الفتحة  
الضيقة، حتى تسلل عطرها قبل أن تظهر صورتها...

عفاف، فوجئ بها... بوجهها الأمحي الحنون، شعرها الناعم، وعيناها  
الواسعتان الحزینتان، تذكر تكليفها من والدته اثناء غيابهم بتغيير نجف  
المنزل.

- ابتمس تلقائيًا، وفتح الباب على مصراعيه، ثم مدّ يده يصادفها، ظلت  
يده ممسكة بيدها للحظة أطول مما تقتضيه المجاملة، كأنها محاولة غير

واعية للتشبث بشيء من الماضي. هي أيضًا لم تسحب يدها فورًا، بل ابتسمت بخجل، وقالت بنبرة دافئة:

"عاش من شافك"... ثم أردفت بعفوية وهي تضحك:  
"معلش، هنعظلك... محتاجين نرگب النجف".

- اندفعت إلى الداخل يتبعها عاملان، بينما ظل هو يراقبها بصمتٍ يشبه الذهول. فرغم المسافات والزمن، ظل لكلٍ منهما مكانته الخاصة في قلب الآخر.

جمعت الجيرة والألفة بينهما، لكنّ الظروف كانت أقوى من أن تسمح لما هو أعمق من الصداقة، كانا، ولا يزالان، من الطبقة فوق المتوسطة... لا رفاهية للعواطف في عالم لا يعترف إلا بالاحتياج، في صباهما، وفترة الجامعة، كان كلٌ منهما يفضي للآخر بأحلامه الضائعة وهمومه المكبوتة. تذكّر يوم زفافها... كانت كأخته التي لم تلدها أمه، غير أن الحياة لا تهب الفرح مجانًا.

انهارت عفاف بعد وفاة حماتها، ودخلت في نفق طويل من الألم، مكثت ستة أشهر في المستشفى. أراد زيارتها، لكنه خشى ظنون زوجها أحمد، فاكتفى بالاطمئنانِ عليها عبر والدته .

- قطعت شروده ضحكتها، وقالت:  
"والله، وحشتني جدًا".

- قال بصوتٍ خافت، والحنين يتكاثر في عينيه:

"عارف إني مقصّر... خفت أزورك وقتها وحد يفهم غلط".

- أجابت بابتسامة حزينة:

"البركة في والدتك"...

- ثم ابتسمت ابتسامة باهتة، وتركت له تفسير مغزاها كما يشاء، قبل أن

تضيف:

"وبالمناسبة... ألف مبروك على خطوبتك لنادية... إنسانة جميلة".

- ردّ وهو يحاول التهرب من نظرتها:

"لا تقل جمالاً عنك"... ثم وضع السيارة خلف أذنه وقال مبتسمًا:

"تشرّبي قهوة؟"

- أوّمت برأسها، ضاحكة، بينما انشغل هو بضبط لهب السبريّة.

قدّم لها الفنجان.

- قالت وهي ترشف منه:

"ما زالت قهوتك زي زمان... ممتازة".

"أنا القهوجي بتاع زمان، يا باشا"... قالها وهو يسحب السيارة بخفة،

فابتسمت وضحكت من قلبها، وضحك معها.

- أشعل سيجارته وسألها بصوت خافت:

"أخبارك إيه؟"

- جلست بجواره بعد أن صرفت العمال، وقالت:

"الحمد لله... أطلقت".

- نظر إليها بصمت.

- فهمست بشجن:

"كله بيعدي".

- ألقى عليها نظرة قلقة، وقال:

"احكي... أنا خايف تكوني محملة لي ذنب إنك عشتي مع حماتك بسبب

رأيي زمان".

- ضحكت بصدق، وقالت:

"إنّ مش فاهم حاجة خالص".

- اقترب منها، وعيناه تتوهجان بالقلق والفضول:  
"فهميني... عايز أطمئن عليكى!".

- أخذت نفسًا عميقًا، أغمضت عينيها، كأنما تحفر في ذاكرتها جرحًا قديمًا،  
وقالت:

"بعد سنتين من الجواز، جالي أحمد، فرحان، وقال لي إنه جهزلي شغل في  
شركة قطاع أعمال بمرتب كبير، عن طريق قريبه... كنت فرحانة، بدأنا  
نعيش... بدأنا نحس إننا بشر.  
الشغل كان مرهق، بس حسيت بقيمتي".

- ناولها كوب الماء، فأبعدته بهدوء وكأنها تتأهب للتخلي عن ثقلِ جثم  
على روحها:

"يومي كان بيدأ من ٦ الصبح، أرجع ٧ وأحيانًا ١٠ بالليل... وهو؟ يخلص  
شغله على الساعة ٣، ياكل من إيد أمه، ياخذ قيلولة، ويتفرج على الماتش،  
أو يخرج مع أصحابه".

- صمتت، وتغيرت ملامحها، وبدأت تروي ما كتّمته طويلًا:  
"شغلي استهلكني... توتر وضغط، ورؤساء بلا رحمة... شايلة شغل ناس  
تانية، علشان بس عندهم واسطة أو قرايب، وهم قاعدين مرتاحين،  
ينعمون بالبدلات والسفر ويبترقوا... ويلمّوا الغنايم دون علم أو كفاءة أو  
موهبة، وأنا واقفة ساكنة، يلجم لساني وجود اسمي في كشوف المكافآت  
لتقاضي ثمن ترف وراحة كل ذي محسوبية".  
- بدا متأثرًا بشدة.

- قامت من مكانها، بهدوء، وغضبها يغلي في داخلها، وقالت بنبرة أقوى:  
"الحقد، والعجز، والنقمة... كتموا صوتي، عدالة إيه؟ وإحنا عايشين في  
بلد كلها وسايط، وفوارق، وحواجز... وكل يوم بقول لنفسي يمكن بكرة

يبقى احسن ،بس بكرة بييجي زي النهاردة... وأسوأ "

- ظل صامتًا يستمع لها، وعيونه تعكس قلقًا واضحًا شاردًا في نفسه، حاول أن يبتسم ليعبر عن تعاطفه معها ويخفي ارتبائه.

- أشاحت بيديها في الهواء وكأنها تهزه ليفيق من شروده، وقالت:  
"أنا أشتغل... والغنايم تروح لغيري!"

- بدت عليه علامات التأثر، وضع يده على قلبه، محاولًا إخفاء الألم.

- ارتشفت رشفه قهوة وأردفت بحسرة:

"الحقد، النقمة... العجز كتموا صوتي، حتى بيني وبين أحمد بقي في حاجز... مفيش لا مشاعر ولا جسد، قادرين يتقابلوا".

- ظل صامتًا، وعيونه تشي بقلق صادق.

- نهضت، وقالت بنبرة حادة:

"مواعيدنا بقت تمنع حتى الخناقة... مفيش وقت لا للزعل، ولا الحب، ولا الشوق.... حماتي كانت عين عليّ... بتحسب عليّ نفسي".

ثم تنهدت، وقالت:

"علشان أرضيه وأعوّض جفا في جبت له عربية باسمي... عشان يوصلني بيها". ثم تغيرت ملامحه، واردفت بصوت مكتوم وابتسامة خجولة:

"شعورٍ بغيض... شعورٍ بشخصٍ يراقبك في أدق لحظات خصوصيتك، تعودت كتم مشاعري بأنين مكتوم".

- اكتفى بالصمت، وهزّ رأسه، فلم يكن لديه قولٌ فوري.

- ثم استعدلت في جلستها، وكأنها تحاول إطفاء النار الموقدة تحت إنائها وأكملت:

"حماتي تنتظر الخبر السعيد، نظراتها كانت بتنهشني... تأخري في الإنجاب خلاها تشك في حبي لابناها الوحيد وربما في أنوثتي".

- هزّ رأسه متعاطفًا، فتابعت:

"قررت أخذ إجازة عشان أحاول أحمل... وبالفعل، حصل الحمل... رجعت الشغل، وسبت عمر مع حماتي... مع تنازلي عن ثلاث تربع مرتبي، والباقي بيدوب في مظهر لازم أحتفظ بيه قدام زمائلي، اللي في قلبي عليهم غلّ ما بينتهيئش".

- ثم صمتت للحظة، وكأنها تراجع نفسها:

"بس، بصراحة؟ رغم كل شيء... كنت بحس بالأمان وحماتي موجودة. كانت دايماً صاحبة الكلمة الأخيرة، ما بتأخدش رأي حد، وكل حاجة لازم تمشي زي ما هي شايفة. بس وسط كل ده، كان في نوع من الطمأنينة... كأن وجودها بيحمي البيت من الانهيار. كنت بكره تدخلها، آه، بس عمري ما خفت من بكرة وهي حواليا، وفي نفس الوقت، ما كنتش قادرة أستغنى عن مساعدتها... حماتي كانت شايلة عني كل حاجة في البيت، كانت ست بيت بجد... وكانت حتى بترعاني أنا!".

- قاطعها مبتسمًا بهدوء:

"من يريد العسل، فليصبر على قرص النحل".

- هزت رأسها بالإيجاب، وظلت صامتة... ارتعشت يدها، وهي تلتقط سيجارة من علبته، وأخذت نفسًا طويلًا، وعيناها تلمعان، وجهها يتألم ويتوجع، وهمست بشجن:

" فجأة... ماتت حماتي، حسيت بحاجة غريبة... حزن وابتهاج.. وكان زلازل قوى ضرب بداخلي لأول مرة أشعر بحريتي، فانطلقت اغير امكان الاثاث في المنزل، وادعوا زملائي الى مملكتي، وارتدى الفساتين وقمصان النوم العارية، وأحمد بيتفرج عليّ مش فاهم، وأنا مش ملتفتة ليه".

- سقطت دموعها، وقالت:

"بس لما حاول يضميني... معرفتش أطع صوت، كنت ميتة جوايا".

- لم يعلق اكتفى بنظرة فيها تعاطف صامت

- خفضت صوتها، وقالت:

"كنت فاكرة إني هطير بحريتي..."

ثم نظرت في الفراغ وقالت:

"فجأة، افتقدت حماي... "

- وأكملت بصوت مكسور:

"بموتها... فقدت ظهري وسندي".

"واصبحت أنا اللي لازم أطبخ، وأغسل، وأصرف على البيت. أنا اللي لازم  
أكون أم وأب وخادمة... كل الأدوار في وقت واحد، من غير حتى كلمة  
تقدير".

سكنت لحظة، ثم تابعت بنبرة أقرب للهمس:

"الغريب إن اللي كنت بشتكي منه زمان، هو اللي كان بيحميني من حاجات  
كثير. حماي، بكل تحكهما، كانت بتسد فراغات أحمد... كانت بتغطي على  
غيابه، على تقصيره، على بروده".

ثم نظرت إليه وكأنها تكتشف شيئاً لأول مرة:

"بموتها، كل حاجة اتكشفت".

سألت نفسي لأول مرة:

"هو أحمد بيعمل لي إيه؟"

ولقيت الإجابة:

"ولا شيء".

أنا اللي بشيل كل حاجة... هو خامل، ما بيقدمش حاجة، حتى الهدايا  
ما كنتش موجودة... مفيش غير الشبكة".

عرفت لأول مرة إجازات العرصة، بسبب مرض عمر.  
وصار يرين في أذني مصطلحات لم أعتد عليها:

"ماذا نأكل اليوم؟"

"غسيل وكيّ الملابس"

"خزين البيت أوشك على الانتهاء"

"انتظار بائع اللبن يوميًا من أجل عمر"

"مباشرة العمال عند إصلاح سباكة المنزل"

"تنظيف الشقة"

"الطبخ يوميًا"

"من أين أشتري الخضروات والفراخ واللحوم... تاهت روحي، شعرت أنني  
بوفاة حماتي فقدت روح الحياة.

- ثم نظرت إليه، وهي تحاول أن تهدئ نفسها، وابتسمت ابتسامة  
متهكمة، وقالت بنبرة تحمل مرارة أكثر من المزاح:

"متشوق لقرص النحل."

- ابتسم هو، وهمس كأنه يعترف بشيء لم يقله من قبل:

"فقدتي الحاكم المستبد المستنير".

نظرت إليه، وعيناها ممتلئتان بالدموع، كأنّ كلماته فتحت بابًا كانت تحاول  
أن تُبقية مغلقًا، تابعت، وعيناها ممتلئتان بالدموع:

"ماكانش خناق كبير ولا حاجة تستاهل... عمر كان تعبان وسخن شوية،  
ولما أخذ الدواء ونام، قلت ألحق أروق الدنيا. غسلت المواعين، رتبت

المطبخ، ومسكت المكنسة ألمّ الأكل اللي وقع على الأرض قبل ما تيجي  
مدرسة عمر. شعري كان لازق من العرق، وكنت مستعجلة أخذ دوش.

دخل أحمد، لابس قميصه الأبيض المكوي، وريحة برفانه مالية البيت،

وقف قدام المراية، ببعْدَل في أزرار القميص، وقال بكل برود:  
"عفاف... الكرفة البني فين؟  
عندي فرح كمان شوية".

بصيت له، مش فاهمة... هو رايح معايا؟  
ولا مستعجل علشان يلحق أصحابه؟  
حتى نظرته كانت كأنه مش طايق يشوفني.  
لمحت وشي في المراية... ما عرفتوش.  
هالات سوداء تحت عيني، بشرتي شاحبة  
شعري منكسر على كتفي.

حسّيت إني مش أنا، غريبة عن نفسي  
عن شكلي، عن كل حاجة كنت فاكرة إنها أنا.

انتفضت، أجري بين الغرف بهياج، أفتش وأنبش في دولابي. كنت بدوّر  
على أي لحظة حب، أي ورقة، أي هدية، أي حاجة تثبت إنه شافني يومًا  
كإنسانة.... ما لقيتش هدية واحدة قدّمها لي... غير شبكتي المتواضعة،  
على مدار عشر سنوات... عشر سنين، ولا مرة خرجنا نتفّسح، فتحت  
ألبوم الذكريات... كله صور الفرح بس. لا رحلات، لا لحظات حقيقية، لا  
حاجة تخليني أقول إننا كنا مع بعض بجد.  
فجأة، انفجرت.

"كسّرت كل ما حولي: التليفزيون، رميت التبلوه، وهدومي على الأرض...  
جريت على المطبخ زى المجنونة، أكسر في الأطباق والكبايات، وحدفت  
الأكل على الأرض، وفتحت الثلاجة، أرمي كل ما فيها من غير تفكير وأنا  
بصرخ وبقطع هدومي بإيدي، كآني بحاول أخرج من جلدي، من كل حاجة  
كانت بتخنقني

اندفع أحمد ناحيتي، شالني وخرجني بره المطبخ، وإيدي لطخت قميصه،  
بصلي نظرة عتاب... نظرة باردة، كأني أنا الغلطانة، كأني مش مفهومة.  
النظرة دي أفقدتني عقلي.

مسكت الأباجورة، ورميتها في وشه.

سمعت صوت الزجاج وهو بيتكسر، وشففت الدم وهو بيجري على وشه،  
وأنا واقفة مصدومة... مش قادرة أستوعب أنا عملت إيه.

- ثم صمتت قليلاً، وأردفت بصوت مبجوح:

"صحيت في المستشفى... معرفش عدّي ست شهور إزاي. كنت تايهة،  
مش فاكرة حاجة، بس لقيت نفسي راجعة على بيت أهلي، ومعايا ورقة

طلاقي، وابني في حضني، وسيارتي اللي باسمي... بعد ما ضاع عمري."

- في تلك اللحظة، أدرك أن الأمر أكبر من مجرد كلمات انحنى قليلاً ليخفي  
علامات الحزن والألم على وجهه، حابسًا حزنه، شاعرًا بالعجز، ومعبّرًا لها

عن أسفه العميق لعدم قدرته على مساعدتها في المحنة التي مرت بها.

- أمعنت النظر إليه، وهي تجفف دموعها الصادقة، قائلة وهي تودعه:

"أحيانًا، يكون الاستماع أعظم هدية يمكننا تقديمها".

وغادرت، ببطء، وتركته غارقًا في انكسارها.

ظل يرقبها تمضي، فيما كلماتها تجرح أعماقه.

تذكر مقاله...

تذكر نادية...

تذكر كل ما كتبه.

أطاح بفنجان القهوة، وأدار التلفاز.

ظهر مشهد الثوار من فيلم "رد قلبي":

"فليسقط الطاغية... فليسقط الطاغية!"

- ابتسم ساخرًا، ورفع عينيه نحو السقف، كأن شيئًا قد سقط منه للتو،  
وقال:

"الحماة... لم تكن جلدًا، بل كانت وتدًا.  
والزمن... لم يكن رحيماً، بل متواطئًا في تساقطنا".  
التقط قلمه، وكتب:

"الحياة لا تفضحنا دائمًا بالانهيار، بل بما يكشفه الانهيار.  
كم من مرة حسبنا من يمسك بالخيط ظالمًا... بينما كان الوحيد الذي  
يمنع الخيمة من التمزق".  
نهض، ومشى بخطواتٍ أثقل... لكنه أكثر وعيًا.  
اتكأ على حافة النافذة، تطلع إلى الشارع الخاوي، ومزق مقاله وهمس  
لنفسه:

"من لم يفهم قيمة الوجد إلا بعد سقوط الخيمة... فليتعلم كيف يحزن  
بكرامة وصمت".

تمت

(٥)

## شوال الحسنيات

القاهرة ١٩٩٢

ليلته تلك، حلم بخمس فتيات جميلات، كلٌ منهن تمسك رغيًا طازجًا كبيرًا، وإلى جوارهن فتاة وحيدة لا تقل جمالًا، واقفة تنتظر بهدوء، تمسك أيضًا رغيًا طازجًا. كلهن قدمن له الخبز، لكنه اختار الرغي من يد الفتاة الوحيدة.

استيقظ على رنة الزغاريد في المنزل، احتفالًا بصدر القرار الجمهوري بتعيينه في النيابة.

شعر بتأرجح غريب بين عمله الحالي كمحامٍ في شركة خاصة، يتقاضى فيه ألفي جنيه، وبين مستقبل مرموق ينتظره براتب لا يتجاوز ثلاثمائة جنيه. فرحة وهيبة... لكن خلفها حسابات لا يعرفها سوى قلبه.

انزوى في غرفته للحظات، يتأمل قرار التعيين أمامه على المكتب، إلى جواره ظرفٌ به آخر راتب من الشركة.

قرأ القرار مجددًا، تأمل توقيع الرئيس في نهايته، وشعر بالهيبة تتسلل إلى قلبه، كأن الدولة كلها وضعت يدها على كتفه وقالت له:  
"أنت منّا".

غير أن أفكاره لم تهدأ.

ثلاثمائة جنيه تنظر إليه بثقة، دون أن تقدم شيئًا... سوى شرف المكان.

تذكر الحلم.

تذكر الفتيات الخمس، وتلك الوحيدة التي وقفت على الهامش، لا تتكلم،

فقط تبتسم ومدت إليه رغيفها بثبات.

كان الرغيف كبيرًا، لا شك. لكنه لم يكن الأذفأ، ولا الأشهى... فقط كان خاصًا، وكأن قلبه علم أن في الاختيار عزلة، وفي العزلة طريقًا لا يسلكه إلا من أراد شيئًا أكبر من الشعب.

ظل مترددًا، تتمم بكلماتٍ خافتة، لا يسمعها سوى قلبه:

"الراتب زهيد، وقيود وابعاء فوق الطاقة... ولا وسيلة لعملٍ آخر بجوار النيابة. فلم العذاب؟"

كان من المقرر أن يُحلف اليمين بعد يومين، ليرتدي عباءة القضاء رسميًا، لكن اتصالًا من سكرتارية الوزارة قلب الموازين:

"تم تأجيل المراسم لحين البت في تظلم أحد أوائل الجمهورية، خريج جامعة أسيوط، الأول على دفعته، ولم يُعَيّن... لحين حضوره من المملكة السعودية".

راح يتأمل الاسم الغريب لذلك الشاب القادم من المملكة:

"الأول... ولم يُعَيّن في أى من الهيئات القضائية؟! "

صاحب الواقعة التي باتت حديث الساعة، حيث أوقف سيارة الوزير قبل انطلاقها من مقر وزارة العدل، مقدمًا له شكوى بالظلم الذي وقع عليه.

وكان في الانتظار، درسًا في بوادر حياته، لمشاهدة كيف تأخذ مظاهر العدل مجراها، وكيف تصل سفينة الحق إلى مرساها.

في صباح حلف اليمين، كانت خطواته بطيئة، مترددة.

أبصر نفسه واقفًا في آخر الصف، حائرًا، وكأنما ينتوي البقاء والرحيل في آنٍ واحد.

خلفه، وقف الطالب الأول على أسيوط.

تراجع بخفة وجعله أمامه.

شكره الشاب، ومدّ يده قائلاً:  
"باسمه".

- نظر إليه بتساؤل، وقد سكنه الفضول:

"لماذا تركت السعودية وجئت؟"

- تغيّرت ملامحه، ونظر إليه نظرة عاتبة وقال:  
"لملء شوال حسناتي".

حدّق في الفراغ كمن يختبر وقع العبارة على روحه. كانت كلمات بسيطة، لكنها دقت في داخله جرسًا خفيًا اخترقت شيئًا عميقًا فيه، فأيقظه، عندها همس لنفسه حاسمًا أمره:  
"وسأملأ شوالي حسناتي أنا أيضًا"  
وتقدّمًا معًا لحلف اليمين.

تمت

(٦)

من لا يأكل من الخبز  
لا يُطفيئ نيران الفرن

أنا يحيى... الابن الأكبر.

لم أكن سوى طفلي في منزلٍ متواضع، لا يعرف من الدنيا إلا أربع جدرانٍ تضيق حين يشتد المرض على أمي، وتتسع حين يضحك إخوتي الثلاثة من حولي.

ورغم أن عائلة أبي كانت تنعم بثراءٍ فاحش، كنا نحن نعيش على الهامش؛ نسمع الهمس عن قصر جدي الذي لا نزوره، وعن أقاربٍ لا نعرفهم إلا من صورٍ باهتة في خزائن أبي... صورٍ تشبه الذاكرة أكثر مما تشبه الواقع. وبمرور الأيام، أدركت السرّ خلف هذا التباين:

طُرد جدي والدي من "كنفه"، بعد أن أصرّ على الزواج من أمي — الممثلة التي اعتزلت الفن لأجله.

لم يكن جدي ليرضى بذلك، لا سيما أننا من أصول صعيدية عريقة، لا تقبل أن تمرّقها ألسنة الناس الحادة، ومع هذا مضت السنوات بحلوها ومرّها، حتى بلغ عمري اثني عشر عامًا، حين وقع الحادث المروع: "أصيبت أمي بشلل دائم، وأصبحت نفقات علاجها فوق طاقة أبي، و لم يجد ملاذًا غير جدي، فعفا عنه، وسامحه، وعاد أبي إلى القصر وهناك ولأول مرة في حياتنا دخلنا القصر الفخم معه، نسكن تحت سقف واحد مع عمي "جمال" وزوجته "افتخار" وأولادهم الأربعة".

نعمننا بالثراء، وتحسّنت صحة أمي نسبيًا، رغم أنها لم تعد قادرة على السير.

كبرتُ على صوت أبي المتعب، كنت أراه يصلح الماكينات بنفسه يسبق العمال إلى العمل، ويعود آخرهم، وكأنه كان يرد الجميل لجدى. لكنّ العم جمال، ما عرف يوماً دفء الأخوة، كان يرى في أبي خصماً ينازعه الحق لا شقيقاً يشاطره الدم، وإن تشدّد بعطف العمومة. وحين مات جدي، لم يترك وصية، بل ترك لهما مصنعين: واحد كبير، مربح، وجهاز للعمل. وآخر صغير، بالكاد يمكن وصفه بـ"المصنع" نهض على اكتافنا. جلسا وحدهما دون شهود.

قال له عمي، بثقة باردة:

"المصنع الكبير من نصيبي..."

بحكم إني كنت دائماً في الصورة".

أما أبي؟

لم يناقش، لم يرفع صوته، لم يستدع محامياً، ولم يُخرج أخاه. ظل واقفاً كأنما يُنصت لصدى قديم داخله، ثم أوماً برأسه في هدوء.

كنت صغيراً لا أفهم، لكنني الآن أدرك:

أن عمي جمال لم يكن جشعاً فحسب، بل أسير وهم صنعه الغياب، فقد اعتاد لسنواتٍ طويلة أن يعيش ابنًا وحيداً في كنف أبيه، وحين عاد أبي، شعر - في أعماقه - أنه ضيفٌ على الميراث، فاندفع يتشبث به، كمن يرفض أن يترك ما ظنّه يوماً ملكاً له.

أما أبي، فلم يكن عاجزاً عن الكلام، بل اختار أن يركب المركب الهادئ، ربما لأنه أحسن - في أعماقه - أن يواجه ممن أحبّ كان عصياناً صامتاً لأبيه، وأن سنوات القطيعة التي قضاها بعيداً عن العائلة، جعلته لا يرغب في مزيد من الخلافات، لم يشأ أن يبدو في عيون الناس كمن يعود ليعترض

على ما لم يكن حاضرًا له .  
كان قادرًا على الرفض... لكنه آثر الصمت، لا خنوعًا، بل احترامًا لمكان لم يُسامحه تمامًا.  
أخذ المصنع الأصغر.

أما عمي جمال، فاخذ من الوليمة أكثر مما يستحق .  
لم تكن أرض المصنعين مجرد مساحة صناعية، كانت كأنها كائن حيّ بجسدين متلاصقين، لكن حين جاء وقت القسمة، قُسمت كما تُقسّم الميراث على ميزان غاشم انكسر العدل: لم يكتفِ عمي جمال بأخذ المصنع الأكبر، بل ابتلع معه معظم الأرض، مستحوذًا على أكثر من ثلاثة أرباعها، رغم أن حقه إبي الشرعي كان النصف. ومنذ ذلك اليوم، صارت تلك القسمة قدرًا لا يملك أحد تغييره.

في الجهة الأولى: مصنعٌ حديث، مصقول الجدران، تحيطه أسوار عالية ونخل مصفوف كالحرس.

وفي الجهة الأخرى: مصنع قديم، أبوابه ضيقة، وسطحه يرشح ماءً حتى في الصيف.

العمال؟ كانوا يعبرون من بوابة إلى بوابة، بنفس الملابس الزرقاء، يحملون نفس الصناديق، لم يكن هناك تفاوت كبير في الجيوب... بل كان في النظرات، في الكلمات، في طريقة العبور من باب إلى باب، كانت الأرض تقول شيئًا لم نكن نجرؤ على ترجمته:

أن الفرق لم يكن في الحركة، بل في المعنى الذي تحمله الخطوات.  
ومع هذا... بقي الجدار.

جدار غير مرئي بين مصنعين، ومع ذلك، لم نكره الأرض كان الهواء يبدو هنا أنقى — وربما كان وهمًا — لكننا أحببناها ، رغم كل شيء... لأنها كانت

أرض جدي، كأننا نحفر في ترابها بحثًا عن عدالة دُفنت قبل أن نُولد.  
سنوات طويلة قضّاها أبي لا ينام، لا يشتكي، حتى استطاع أن يساوي بين  
العمال في الجانبين، في الرواتب، في ساعات العمل، في كرامة المهنة،  
واعادة تحديث المبني وآلات المصنع، وكادت تتقابل قامه المصنعين.  
مرت السنوات حتى لاح أمل جديد لعلاج أمي:  
"عملية جراحية معقّدة في ألمانيا".

لم يتردّد أبي لحظة، استدان من عمّي مبلغًا ضخّمًا وسافر معها، كانت  
الرحلة طويلة... امتدّت لعامٍ كامل، عام أثقل كاهله بالديون، فالإقامة  
والعلاج والسفر التهمت كل ما يملك.  
لكن العملية نجحت نجاحًا باهرًا؛ عادت أمي تبتسم من جديد، تضحك  
وتزهو، كأن الوجد لم يمرّ بها يومًا.  
غير أن القدر لم يمهلها...

فسقط أبي قبل أن يسدّد ما عليه.

وفي يوم العزاء، وقف عمي جمال، يمسح دمعة لم تنزل، وقال:  
"أخويا مات، وساب حمل تقيل... بس إحنا أهله، وولاده أولى بيه".  
ثم صمت قليلًا وأضاف:

"مصنعي فاتح حضنه ليكم... سدوا الدين، وعيشوا على ضهر اسم أبوكم".  
وهكذا دخلت أنا وإخوتي: مجد، ومحمود، وحسين، مصنع عمي بعد ان  
اغلقنا مصنعنا لسداد الدين ...

دخلنا المصنع الكبير كمن يدخل ليقضي محكوميته في صمت.  
سنوات طويلة مضت، بلا عقد مكتوب، ولا وعد صريح.  
كنا عمّالًا، وإن أُشير إلينا بعبارات التكريم الزائفة:  
"ولاد الأصل"

"عَزَّ العيلة"

"سند الظهر وقت الضيقة".

وفي كل مرة كانت تُورَع فيها الأرباح، كان يُقال لنا:

"تم الخصم من الدين"

لم يشفع لنا الدم حين طلبنا تحسين الأجور

ولا حين طالبنا بتخصيص مكاتب تليق بنا.

يقال لنا:

"أنتم أغلى من المال... دمكم من دمنا".

كل ما نلناه من المصنع... هو أن نعيش على الحافة:

وحياة... لا تشبه الحياة.

في القصر، كان كل شيء لامعًا... من الأرضية الرخامية إلى القلوب المُزَيَّفة،

كنا نعيش معهم لكننا لم نكن منهم، نُشَارِك في الأعياد، ونُسْتَثْنِي من

السعادة، نأكل معهم، لكن على طاولة منفصلة، نلبس ثيابًا نظيفة لكن

قديمة، وكأننا نُجَرِّ وراءهم كظلٍ لا قيمة له.

أبناء العم جمال كانوا يعيشون كما لو أن الحياة حُلقت خصيصًا لهم،

سيارات، سفرات إلى أوروبا، تعليم في مدارس أجنبية، ملابس بماركات لا

نعرف كيف تُلفظ.

أما نحن؟ فكنا نذهب إلى المصنع كل صباح، لا لأننا ورثة، أو شركاء، بل

لأننا مدينون... مدينون بحلم أبي الذي لم يُكتمل.

لم يكن العمل سهلاً، ولم يكن التعامل معهم أسهل، كانوا يمزون بنا كما

تمرّ المراوح في فصل الشتاء باردة، متعجرفة، لا تُلقِي تحية، ولا تُسأل عن

تعب.

يُقال لنا دائماً:

"اصبروا، أنتم من دمنا".

لكن ذاك الدم الذي كانوا يتغنون به، لم يجلب لنا دفئًا حين كُتِّبَ بأمسِّ الحاجة إليه.

لمَّا طرقتنا بابهم نطلب تأجيلًا مؤقتًا لسداد الدين، فقط حتى نُعيد تشغيل مصنعنا، لم نجد إلا الصمت والبرد.

وقفنا ذات صباح، أنا وإخوتي، أمام مكتب العم جمال، كان يجلس على كرسيه الوثير كأنه عرش لا يُورَث، ولا يُقَرَّب منه إلا بأداء الطاعة.

قال حسين، بصوت محسوب لا يخلو من رجاء:

"يا عمي... احنا مش طالبين صدقة، بس مصنعنا محتاج كام شهر على ما يرجع يشتغل، نأجل الدفع مؤقتًا، ونكمل الشغل زي ما هو".

-لم يرد فورًا، نظر إلينا نظرة طويلة، ليست نظرة عمٍ يرى أبناء أخيه، بل نظرة تاجر يقيّم بضاعة يعرف قيمتها، لكنه يرفض أن يدفع ثمنها، ثم ابتسم تلك الابتسامة التي لا تصفح ولا تحتضن، وقال بهدوء مفرغ من الرحمة:

"تأجلوا؟... على حساب مين؟ أنا؟ ولا أولادي؟"

ثم مال إلى الخلف، وقال ببرودٍ أكثر:

"أنا لا بنك... ولا مغفل".

-قلت، محاولاً أن أضبط نبرة صوتي التي خانها الانكسار:

"مش بنطلب غير فرصة... نرجع بيها شغلنا، مصنعنا اللي تعبنا فيه سنين".

-نهض من مقعده ببطء، كما لو أن الوقوف أمامنا رفعة لا يستحقها الموقف، ثم اقترب بخطوات محسوبة.

ثبَّت عينيه في عيوننا، واحدة تلو الأخرى، وقال بصوت رخيم يحمل في

طيّاته شيئاً أخبث من الصراخ:

"أنا لا أجبر حد، سدّدوا الدين... وافتحو مصنعكم".

ثم توقّف لحظة، وبنظرة ماكرة وصوت لا يكاد يُسمع، نطق بما لم نكن نريده أن يُقال، لكنه كان كافياً ليوّظ كل الجمر الذي تحت جلدنا:

"بس أنا عارف إنكم رجّالة... ومش هتقبلوا على نفسكم الناس تقول إنكم ماقدرتوش تسدّدوا دين علاج أمكم... وإنتم أربع رجّاله. ولا إيه؟"

ثم خفض صوته أكثر، كمن يُلقي طعنة ناعمة:

"ولا... عايزني أتنازل عن الباقي؟ صدقة... وإحسان؟"

سقطت كلماته علينا كصاعقة، اخترقت كرامتنا مثل نصلٍ بارد، لا يترك دمًا، بل حفرة غي الروح.

اتسعت عيوننا فجأة وتحوّلت إلى قنابل على وشك الانفجار. الصمت الذي ساد بيننا كان أبلغ من أي صوت، كنت أسمع الغليان في صدورهم كما يُسمع صفير الغلاية قبل الانفجار.

كنا نعرف أن العم لا يرحم، لكن ما لم نكن نعرفه، أنه سيجرّنا إلى ساحة لا نحسن فيها الدفاع:

"ساحة الرجولة، والواجب، وأمنا المريضة... كلهم مكّدسون داخل جملة واحدة تنضح بالمنّ والتسلّط".

ولأننا أبناء أبي، لا نتسول حتى وإن جُبلنا على الحاجة، لم يكن أحد منّا ليقبل صدقة، حتى ولو جاءت من مغتصب الحقوق.

كنا نتقاضى رواتبنا ونعيش منها كمن يقتسم الماء، ندّخر ثلاثة مرتبات، لنختصر أيام سداد الدين ثم نصرف من راتب واحد.

باقي من الدين مليوناً جنّيه، لكن الحقيقة التي لا يجرؤ أحد على التلقّظ بها، أن عمّي هو المدين لنا بأضعاف هذا المبلغ لو فُتح ملف إرث جدي

وحسب الفارق بين المصنعين.

لكن أبي قبل، حرّرتنا لباتبات بخط يده، وابتسم للظلم كأنه قدر، لا خيار. فأصبحنا نتعامل مع وضع مختل، قائم على صمتنا، ومغلق بمفتاح الكرامة، نمّد لهم أعمارنا كما تُمدّ الحبال... ليصعدوا، ونحن نطلّ مشدودين إلى الأرض.

كل شيء صار يُنسب إلى أبناءه: التطوير، الجودة، النجاح. أما نحن، فكنا نلاحق بعبارة واحدة، لا تغيير: "من لا يملك... لا يستحق".

\*\*\*

في ظهيرة خانقة من أيام يوليو، ارتفعت رائحة الزيت المحترق، تلاها صوت فرقة مفاجئة من الجهة الشرقية للمصنع. انطلقت الصيحة الأولى... لم تكن عالية، لكنها كانت كافية لتوقظ شيئاً غائراً تحت جلدنا. ركضنا كما نركض دائماً.

أنا، ومجد، ومحمود، وحسين... لم نفكر، كأن أجسادنا سبقت عقولنا، كما تعودت أن تفعل منذ سنوات، وصلنا إلى هناك. الدخان يتصاعد، والحرارة تلفح وجوهنا، واللهب يتراقص على خطوط الحديد، مدّ مجد يده نحو الخزان.

أنا أمسكت بالخرطوم.

محمود رفع الرافعة.

وحسين سحب السلم الطويل.

ثم... تجمّد كل شيء.

لم يكن قراراً، بل توقفاً غير مرئي.

كأن شيئًا ما تحرك داخلنا، فشل في الوصول إلى أطرافنا.  
نظرت إلى يدي، فوجدتها ترتجف على الخرطوم.  
نظرت إلى محد، فرأيته ساكنًا كتمثال، عيونه متجمدة في الفراغ، كأنما يرى  
شيئًا لا نراه، كان يسمع، كما أسمع، صوت العم جمال في رأسه:  
"أنا لا بنك... ولا مغفل".

محمود لم يكمل الرافعة. عيناه مثبتتان في نقطة لا تُرى، كأنهما تُعيدان  
شريطًا قديمًا من العرق المُهدر.  
أما حسين، فقد عضّ على شفثيه، كمن يمنع شيئًا من السقوط: كلمة؟  
دمعة؟ صرخة؟

ثم... أدركنا جميعًا:

لم يكن الحريق هو ما شلّنا.

بل الذكرى.

مشهد أبي وهو يوقع التنازلات... حديث العم عن "الصدقة"

أعيادنا المنفصلة... كرامتنا التي تُقاس بالأقساط.

دين علاج أي الذي أصبح خيطًا يخنق أعناقنا.

في تلك اللحظة... تساقطت الأوهام.

لم نعد نرى نار المصنع.

رأينا نيراننا تختلط مع صوت العم، مرعوبًا لأول مرة، ليس غاضبًا، بل

متوسلًا بشكلٍ لا يشبهه:

"اطفوا النار! المصنع هيروح! ده أكل عيشكم!"

وفي تلك اللحظة تجمدت اطرافنا وتوقفت اجسدا.

وفي الخلف، عند مدخل القاعة الكبرى، كانوا يقفون.

أبناء العم جمال. قمصانهم المكوية، ساعاتهم اللامعة، لا يحملون

خرطومًا، ولا يُسرعون، ولا حتى يصرخون.  
كان أحدهم يفتح هاتفه... يصور النيران كما لو كان يوثق مشهدًا غريبًا من نافذة فندق.

الآخر يلتفت نحو سيارته الفارهة، يركض نحوها مذعورًا لينقلها بعيدًا عن الدخان، وثالثهم يغلق زجاج سيارته بسرعة، ثم يدور بها مبتعدًا شيئًا فشيئًا...

كأن المصنع مجرد مبنى في طريق سفرهم.  
لكن نظراتهم، ووسط كل هذا، كانت علينا.  
توسل صامت. رجاءٌ مكتوم، يتدلى من أعينهم بلا كلمات:  
"اعملوا حاجة... أنقذونا".

لم يطلب منهم العم شيئًا.  
ولم يعرضوا شيئًا، وكأنهم، في قرارة أنفسهم، يعلمون... أن هذا المصنع لم يكن لهم أبدًا.

الفرن خلفنا كان يزأر، والصمت أماننا كان أعلى من أي نداء، لم نقاوم النار، تصاعد اللهب، كمن يُطالب بحقه المتأخر.  
سقط الخرطوم من يديّ دون أن أقرر.  
محمود أدار وجهه نحو الباب.

مشى حسين... بينما محمد... بقي لحظة، ثم لحق بنا.  
صوت العم، رغم ارتفاعه، لم يصل إلينا كما اعتاد.  
كان الخروج صامتًا.

وحين تصدّعت أولى الجدران واندلعت ألسنة النار، هرع العم وسط العتمة، صوته يتكسر بين الدخان:  
"ده مصنع أبوكم! هتسيبوه يولع؟! "

لكن الأقدام لم تتحرك.  
كانت الأرواح مشدودة إلى مكان آخر... إلى سنين لم تُنسَ، وصفعات لم تُداو، وحقوق قُيّدت باسم الأخوة.  
وقفنا هناك، لا عصيانياً... بل فراغاً.  
كأن اليد التي ظلت تعمل بصمت، لم تُعد تعرف ماذا تفعل حين يطلب منها أن تُنقذ ما لم يُشعرها يوماً بأنه لها.  
كنا أبناء هذا المكان... لكن بشروطه هو.  
والشروط لم تكن يوماً عادلة.  
النار كانت تلتهم الحديد، لكن شيئاً فينا كان قد احترق منذ زمن. لا لأن الحريق كان أقوى من الماء، بل لأن القلوب التي طُلب منها الإنقاذ... لم تجد في نفسها سبباً واحداً لإنقاذه، ومع كل خطوة نبتعد فيها عن الفرن المشتعل، كانت الحقيقة تنضج فينا أكثر... بلا كلمات.  
حتى قالها مجهد، دون أن يلتفت:  
"من لا يأكل من الخبز... لا يُطفئ نيران الفرن."

نمّ

(٧)

## عشرة أيام للنسيان

"النسيان قد يكون أحياناً

أصدق أشكال الغفران"

القاهرة ٢٠٤٠

أعلن معهد «نوروسين» الطبي عن اكتشاف دواء ثوري يُدعى "تريمورال"،  
يعيد ترتيب ذاكرة الإنسان بحيث لا يتذكر سوى آخر عشرة أيام من  
حياته.

"رُخِّص استخدامه في البداية لمرضى الزهايمر، وما زال الدواء تحت  
التجارب العلمية، ويبحث المعهد عن متطوعين للمشاركة في دراسة آثاره  
على الأشخاص الأصحاء، خصوصاً فيما يتعلق بإعادة ترتيب الذكريات  
والهروب من الماضي المؤلم."

أعلنت النتائج الأولية على بعض المتطوعين أن الدواء يعمل بكفاءة  
مذهلة:

"فور تناوله، تبدأ الذاكرة بالتلاشي تدريجياً، حتى تمحو كل الذكريات  
السابقة، ويبقى في الوعي فقط سجل الأيام العشرة الأخيرة، وما يختاره  
المريض بعناية من ذكريات يريد تثبيتها في ذاكرته، بينما يذوب الباقي  
تدريجياً كما لو لم يكن موجوداً."

\*\*\*

بلغ "منسي" حدّاً من الحزن لم يعد يُحتمل، رجلٌ أفنى عمره في الكفاح،  
فلم يحصد سوى الخذلان، كبر وهو يؤمن أن الاعتذار ضعف، وأن

القصاص وحده يُعيد التوازن، وأن العالم لا يهاب إلا من يردّ الضربة بعشرة.

وظلّت صورة أبيه الصعيدي، الجالس على المصطبة في ليالي القرية، لا تفارق خياله، وصوته يرن في أذنه:  
"اللي يسيب حقه ما يسواش قرش...  
والتساهل للضعاف يا ولدي".

كبر منسي في عائلة صعيدية صارمة، حيث كان الأخ الأكبر رمز القوة ودرعها، وانغرس في قلبه أن الجحيم ينتظر كل من يخطئ في حقه، مهما كان الخطأ صغيراً، فانغمس في الثأر كأنه الحارس المكلف بالقصاص. واليوم، في بيته، باتت زوجته التي كانت يوماً ملاذه تنظر إليه كضيفٍ ثقيل، تتحرك أمامه بحذرٍ غريب، صارت تحدّق فيه كما يحدّق المرء في ساعة متوقفة لا أمل في أن تعود للعمل، لم تعد تحتل قسوته التي لا تفرّق بين خطأٍ جسيم وزلةٍ عابرة، ولا غفرانه الذي ظلّ غائباً حتى عن أبسط هفواتها، شيئاً فشيئاً، صارت تبتعد عنه، وتلوذ بالهاتف كأنه ملاذها الأخير. وهو يلتقط من ذلك الانشغال رائحة خذلان صامت، لا يجرو أن يسميه خيانة.

وابنته تمشي بجسدها في البيت، لكن روحها غارقة في الهاتف ، كأنها تحتمي من حضوره خلف شاشة الهاتف.

أما ابنه... فقد ذاب في دخان الإدمان حتى اختفت ملامحه. وفي وسط هذا الخراب العائلي، لم يبق له إلا عمله، لكنه هو الآخر صار مقبرةً لطموحه.

كلما حاول أن يشتكى، قيل له: "  
أنت السبب... قاسٍ، جامد، لا تُحتمل".

لم يُنكر، لكنه لم يفهم كيف صار هذا الرجل المرفوض، رغم كل ما ضحّى به. لم يعد يرى نفسه في أي شيء:  
لا في بيته، لا بين أسرته، حتى عيون الموظفين أنهكها جفاؤه وقسوته تحت سطوة منصبه. وأشقاؤه... وضعوا أيديهم على أجود أراضي إرث أبيه تحت شعار:

"أنت مش محتاج".

ولأول مرة في حياته، كتم انتقامه، ابتلع غيظه وصمت، حفاظًا على واجهة العائلة أمام الناس، لكن الجمر ظل يشتعل في صدره، يحرقه كل يوم ويقلق مضجعه، فنفسه المتحفزة للانتقام تأبى الظلم دون قصاص. وذات ليلة، جلس أمام الطبيب النفسي، صامتًا، يحاول أن يُخفي بكاءه داخل صوت أنفاسه.

قال له الطبيب:

"المشكلة مش في الناس بس، المشكلة فيك إنت كمان، يمكن تكون كنت على حق، بس طريقتك جرّحتهم... وكلامك كان صعب يتنسى".

- ظل منسي صامتًا، يبلع صوته، ثم قال بتردد:

"أنا شفت إعلان عن دواء... بيخلي الواحد يفكر بس آخر عشرة أيام... وكل ذكرياته الحلوة... الكلام ده صح؟"

- انتبه الطبيب فجأة، ورفع حاجبيه، ثم أزاح نظارته قليلًا:

"إنت عرفت منين التفاصيل عن الدواء ده؟"

- أجابه منسي وهو يحاول إخفاء قلقه:

"مش مهم عرفت منين... المهم:

"بيطلبوا متطوعين؟ أنا عايز أخده".

- أغلق الطبيب الملف، وأسند ظهره للكرسي، وقال بحدة ناعمة:

"استحالة. الدوا ده مش لحالتك".

- تشبث منسي بسؤاله:

"ليه لأ؟"

- رد الطبيب وهو يحدق فيه بدهشة صادقة:

إنت عايز تموت نفسك، بس بطريقة تانية، الذاكرة هي اللي بتربطك بنفسك: بخطاياك، بوعودك، بالناس اللي آذوك واللي إنت آذيتهم، لما تقطع الحبل ده... إنت بتخلق واحد جديد، من غير جذور، من غير ماضي، ومن غير أي ضمان إنك مش هتكرر نفس الخراب".

صمت منسي لحظة، ثم قال بنبرة فيها إصرار متحدّ:  
"أنا مصمّم يا دكتور".

اقرب منه الطبيب، وقال بهدوء:

"لو أخذت الدوا ده، الحياة نفسها هتفقد معناها، الذكريات هي اللي بتدي للحياة طعم وقيمة، قراراتك هتبقى مفصولة عن التجارب، عن الندم، عن كل حاجة شكّلتك".

ابتسم منسي بسخرية مريرة، وقال:

"أنا أصلاً بقيت خرابة يا دكتور".

تنحى الطبيب، ثم قال بنبرة أقرب إلى تقرير مُحدّر:

"من الناحية الصحية: الدوا بيشتغل على مناطق الذاكرة طويلة الأمد، وبيسبب أعراض زي اضطراب النوم، اكتئاب، قلق وجودي، فقدان شعورك بنفسك.

ومن الناحية النفسية: حياتك هتبقى فصول مقطّعة، مالهاش سياق ولا معنى.

ومن الناحية الفلسفية: إنت هتكون مين بعد ما تنسى كل حاجة؟ هتعرف

إزاي يعني إيه غفران؟ حب؟ أو حتى توبة؟ لما كل ده هيتشال من دماغك بعد عشرة أيام؟"  
أطرق منسي رأسه، وابتسم بسخرية باهتة:  
"أومال بيخترعوا ليه؟"

أجاب الطبيب بصوت منخفض، وكأن الكلمات تتسلل من بين شفايفه:  
"المُعلن إنه معمول لعلاج الزهايمر... لكن الحقيقة؟ هو أداة وسيلة للسيطرة... سلاح في إيد اللي عايزين يمسحوا التاريخ ويسيطروا على الحاضر، وسجن الناس جوا حاضر بيتحكموا فيه. دواء بيخلي جيوش كاملة تنقذ أوامر من غير ما تفتكر غير آخر عشرة الأخيرة.. ناس بلا ماضي، بلا سؤال، بلا مقاومة للضمير.  
نظر له منسي وقال باختصار متحدٍ:

"أنا ما بآمنش بنظرية المؤامرة... مشكلتي اني مش بعرف أعفر ولا أسامح، الدوا ده هيخليني انسى... وهفتكر بس اللي انا عاوزه، هعمل لنفسي ذكريات جديده في عشر ايام".

- ثبت الطبيب عينيه فيه وقال ببطء:

"لو أخذت الدواء ده... حياتك كلها هتبقى من غير معنى. قراراتك مش هتكون نابعة من تجربة، ولا حتى من ندم. هتبقى شخص بيبتدي من الصفر كل عشرة أيام... من غير ماضي، من غير حكمة".

ثم اقترب خطوة وحدق فيه يعينين حادتين وقال بصرامة حزينة:

"إنت محتاج تشتغل على نفسك... مش تهرب منها".

ابتسم ابتسامة مكسورة وقال ببطء:

"أنا مش بهرب... أنا بس عايز أعيش عشرة أيام حلوين، أسيب فيهم نسخة أخيرة مني... نظيفة".

نظر إليه الطبيب في عمق وقال:

"ولو بعد العشرة أيام اكتشفت إنك لسه نفس الجرح؟ هتعمل إيه ساعتها؟"

- اجاب مع لمحة من قلق واضح في عينيه:

هأخلق عشرة تانيين... وأحاول أحفظهم".

- سكت الطبيب طويلاً، وفي عينيه رأى طفلاً يصرخ، ورجلاً يحمل سكيناً ليقطع حبل الذاكرة بيده.

ابتسم الطبيب وقال أخيراً:

"لو مُصر... اعمل حاجة واحدة قبل ما تاخذ الجرعة:

إبني عشر ذكريات تستاهل تعيش بيها. لحظات تقدر تعرّف نفسك بيها...

لإن بعدها، إنت هتبقى إنسان تاني، مش هيعرف نفسه غير بيهم".

أوما منسي، ونهض من أمام الطبيب، خرج من العيادة وعيناه تائهتان بين

الماضي والمجهول، يراوده سؤال حائر كيف يصنع عشر لحظات تستحق

أن يعيش بها بعد أن يُمحي كل شيء.

شعر بثقلٍ يجثم على صدره، يرفض أن ينصهر في كلمات، ويطفح على

سطح وعيه كلما تذكّر تلك اللحظة... قبل أسابيع، في مجمع تجاري فاخر،

حين لمح زوجته تسير بجوار ابن خالتها، كانا يتهامسان بضحكٍ خافت،

ثم اتجها نحو زاوية شبه معزولة من الكافيتريا، لم تكن الحركات فاضحة،

لكنها لم تبدُ بريئة في عينيه؛ شيء في انحناءة رأسها، في نظرتها، في لمستها

العابرة لكتفه... أوقد النار داخله.

ولم يكن يدري أن ما ظنه خيانة لم يكن إلا استنجاداً صامتاً؛ فقد وجدت

في ابن خالتها أحاً تستند إليه لتشتري هدية عيد ميلاده، وتخطف معه

لحظات تهرب بها من جفافه العاطفي، محاولةً أن تبقي روحها حية قبل

أن تنكسر وتقع في خطأ لا يُغتفر. لم يقترب، لم يحدث ضجة، فقط رفع هاتفه والتقط صورة، ثم انسحب في صمت.

هكذا كان دائماً: لا يغفر. لا ينسى.

لم يكن أباً عطوفاً، ولا زوجاً حنوناً.

كان قاسياً في حكمه، يُحوّل أخطاء أبنائه الصغيرة إلى جرائم كبرى، ويشيح بوجهه عنهم كلما طلبوا عاطفته.

ومع ذلك، كان يغدق عليهم بالمال بلا حدود؛ كل رغبة مادية تُجابّه فوراً، كل مطلب دنيوي مسموع بلا نقاش، كأنه يعوض فراغ القلب بامتلاء الجيب.

هو لا يعرف العتاب... فقط يعرف القصاص.

توالت الذكريات كصفعات.

تذكّر ذلك اليوم في الجامعة، حين جعله صديقه أضحوخة أمام الجميع، فسقطت هيئته الصعيدية أرضاً، وعجز عن لملمتها وهي تتناثر شظايا في أعينهم.

لم يردّ بكلمة، لكنه ظلّ يترصده بصمت، حتى عرف خباياه.

وحين اكتشف أن والدته صديقه على علاقة مشبوهة، جلب الصحيفة التي نشرت الخبر، وعرضها على زملائه دون أن يرمش. لم يتحمل الصديق الفضيحة، ألقى بنفسه من الطابق التاسع.

حينها، لم يشعر "منسي" بالندم... شعر بالراحة.

كم مرة لام نفسه بعد كل انتقام؟

وكم مرة وعد نفسه أن يتوقف؟

لكن ما إن تلوح الفرصة، حتى يتبدّل؛ يصبح شخصاً آخر، لا يهدأ حتى يقتصّ، ثم... يستريح.

تلك هي طبيعته: من يخطئ بحقه، يراه الجحيم.  
لم يعرف منسي القصاص كما يعرفه الناس؛ ميزاناً يعيد التوازن تحت حكم القانون، بل كان القصاص عنده مرادفًا للانتقامِ أعمى، لا يرى فيه إلا الوجود الذي تلقاه، وكأنه يبني نفسه من جديد كأداة انتقام، حتى لم يبقَ في قلبه ذرة مسامحة أو غفران.... رغبة الانتقام أثقل من ضميره، حتى تحوّلت حياته كلها إلى وقود يغذي نازًا لا تخمد أبدًا، لم ينسَ يومًا إساءة تعرّض لها، مهما صغرت أو مضى عليها الزمن؛ ظلّ يحتفظ بها كأنها جرح طازج لا يلتئم، الماضي عنده لم يكن ذكرى بعيدة، بل حاضرًا متجددًا يعيشه كل يوم. وحين تهجم عليه صور الذكريات القديمة، تخنقه وتهز كيانه، فلا يجد مهربيًا من ذاته القاسية.  
واليوم... أدرك الحقيقة.

شعر لأول مرة أن هناك مخرجًا لا يقوم على الغفران ولا على القصاص... بل على النسيان، عشرة أيام فقط تكفيه ليصنع ذاكرة جديدة، كأن الدواء وُجد ليمنحه فرصة العيش بلا ماضٍ.  
بدت له أقرب إلى "الانتحار الطيب".  
لا دم، لا فضائح، لا صراخ. فقط... محو.  
أن تمحو ماضيك بإرادتك، أن تدفن نزعة الانتقام التي استنزفتك، وأن تترك روحك المتعطشة للثأر تتلاشى كأنها لم تكن. لماذا لا يبدأ من جديد؟ لكن هذه المرة، ليس بماضي يشده للخلف، بل بعشرة أيام فقط... هو من يختار ذكرياتها.

\*\*\*

ابتسم ابتسامة هادئة، أقرب إلى الاستسلام... وأقرب إلى بداية حقيقية، بدأ منسي بفعل ما لم يفعله منذ زمن بعيد:

أخرج صندوق الصور القديمة، قلبها بين يديه، وتوقف عند وجوه أطفاله يوم أعياد ميلادهم، وضحكاتهم التي كادت تذوب من ذاكرته، أراد أن يحفظ ملامح الفرح قبل أن يتركها.

اشترى وردًا لزوجته، ووقف بجوارها في المطبخ، يقطع الخضار ويسألها عن طفولتها، فضحكا معًا لأول مرة منذ سنوات طويلة.

جلس إلى ابنته، يسألها عن الكتب التي تقرأها، لا عن هاتفها ولا عن علاقاتها، فقط يستمع... كأنه يراها حقًا لأول مرة.

مع ابنه الأكبر، دخل مركز علاج الإدمان، وجلس بجانبه ساعات، لا ليؤنّبهُ أو يعاقبه، بل ليبيكي معه.

أما أشقاؤه، فقد زارهم واحدًا واحدًا، واحتضنهم، وقال بهدوء:  
"سامحتكم... والميراث ربنا اللي يورّعه".

في عمله، أغلق كل الملفات المعلقة، ودوّن ملاحظاته بعناية: مواعيد الأقساط، مصاريف الجامعة، تاريخ زواجه وأعياد ميلاد أولاده، حتى موعد تجديد رخصة السيارة، كأنه يسلم الدنيا إلى نفسه الجديدة. ثم كتب رسائل شكر لكل من ظلمه:

"كنتم سببًا في قوتي... ولو كنت يومًا سبب أذى لأي أحد، أنا آسف".  
لكنه لم يرسلها، مزّقها ووضع مكانها مكافآت سخية في ظروف وزّعها بنفسه.

وفي اليوم العاشر... خطى إلى المركز الطبي، لتناول الدواء.

نظر إليه الطبيب طويلًا، ثم ابتسم ابتسامة "غامضة" وهو يناوله الدواء.

أغلق منسي عينيه في ارتياح، وابتلعه كمن يغلق بابًا خلفه إلى الأبد.

وحين استيقظ في اليوم التالي، نظر حوله كمن وُلد من جديد. لا يتذكر شيئًا مما فات... فقط عشرة أيام، مليئة بابتسامات، واعتذارات،

واحتضان، وحبّ صادق.  
لم يعد "منسي" من الماضي.  
صار "منسي" النسخة الأخيرة.  
فقط... عشرة أيام... كانت كافية لينسى كل شيء... ويتذكّر الإنسان الذي  
كان يحلم أن يكونه.  
عاد "منسي" إلى الطبيب وعيناه تلمعان بوهج انتصارٍ هادئ، يروي له  
سعادته بعد أن تناول الدواء.  
جلس الطبيب على الكرسي المقابل له، ووضع يده على الملف المغلق  
أمامه ثم قال بهدوء:  
"أنا كنت معترض على الدواء... وكنت فاكِر إنك بتستعمله تهرب، لكن  
الحقيقة؟ إنت عملت كل اللي كان لازم يتعمل قبل ما توصل هنا".  
- لم يرد وظل صامتًا  
واصل الطبيب:  
"اللي عملته في العشرة ايام قبل الدواء أهم من الدواء نفسه...لما  
سامحت، ورجّعت الدفء لبيتك، ولما سكّنت النار اللي كانت مولعة في  
قلبك...الدواء ما صنعش البداية... الدواء بس قفل الباب على الماضي".  
رفع "منسي" رأسه ببطء، وعيناه تلمعان بوميض مطمئن، وكأنه يتذوق  
الكلمات...  
وقال بصوت خافت:  
"يعني... كنت صح؟"  
ابتسم الطبيب بخفة، وكانّ سؤاله أضحكه قليلاً، وهو يزيح عبوة  
الميدازولام (Midazolam) إلى جواره: مجرد مهدئ يخفف التوتر.  
أغمض "منسي" عينيه، وابتسم ابتسامة هادئة، خالية من أي أثرٍ للوجع

القديم، بينما ظل الطبيب يراقبه بعينٍ مليئة بالدعابة الصامتة.

نَمَسَ

(٨)

## من زح الغبار

عندما يكون الاختيار،

بين فكرتين لا بين امرأتين

وطأ منصور أرض القاهرة وهو يحمل في قلبه وصية جدته التي كانت تهمس له في ليالي القرية الطويلة، بصوتٍ مُتَعَبٍ لكنه مشبع بالحلم:  
"يا منصور... اجعل مصر دارك، وتزوج من بناتها الجميلات".

كان يضحك بخجل وهو طفل ويقول:

"وهيترضوا بيا يا سيدي؟"

فتبتسم بعينيها العجوزتين وترد:

"النية الطيبة تفتح لك ألف باب يا ابني".

كلماتها لم تكن مجرد نصيحة، بل بذرة أملٍ نمت في قلبه منذ الطفولة، تدفعه للحلم بالخروج من ضيق القرية إلى رحابة القاهرة، حيث ظل يتمنى الزواج من امرأة تشبه المدينة. لم ينسَ قصة ابن القرية الذي خسر زوجته القاهرية حين ضاقت بجدران الطين، فعادت إلى مدينتها بأولادها، تاركة زوجها يتجرّع مرارة الفقد، فعزم ألا يكرر ذلك الألم.

أن يعيش مع من يتزوجها في القاهرة، امرأة تشبه المدينة نفسها:

"حرة، متعلمة، جريئة، تمشي بجوار الرجل لا خلفه، وتفتح له أبواب عالم لم يعرفه من قبل".

كان يرى فيهن صورة الحياة كما تمنّاها:

"حياةٌ لا تختصرها الجدران، ولا تُقيدها التقاليد، بل تمتد إلى فضاءٍ واسعٍ من الطموح والشراكة."

تطفو في ذهن منصور صور متضادة بين بساطة القرية وزخم المدينة؛ من القهوة الخشبية إلى المقاهي المضيئة، ومن نساء خلف أزواجهن إلى أخريات يمشين بثقة بجوارهم. هناك كان الزواج نهاية، وهنا بداية لحلم أكبر.

التحق بكلية التجارة، واستأجر غرفة صغيرة على سطح منزل قديم قريب من الجامعة، لم تكن الغرفة أكثر من جدران متقشرة وسرير حديدي، لكنها كانت مملكته الأولى في المدينة، ومنذ السنة الأولى، عقد عهدًا مع نفسه: لن يعود إلى قريته إلا وهو رجل ذو شأن.

مع نهاية كل عام دراسي، كان يطوي دفاتره، ويرتدي قميصه الأبيض المكوي، وبيبونه الأسود، وبنطاله الأنيق، ثم يلمع حذاءه بعناية، وينطلق إلى عمله كنادل في مطعم راقٍ بمنطقة فاخرة.

يبدأ دوامه من الثانية عشرة ظهرًا حتى ما بعد منتصف الليل، دون مقابل عادل للساعات الإضافية، لكن وجبات المطعم الثلاث كانت بالنسبة له مكسبًا لا يقل أهمية عن المرتب. تمر الساعات وهو منغمس في عمله، يرفع الأطباق كمن يرفع أحلامه الثقيلة، وبيتسم للزبائن بابتسامة مدروسة، نصفها مجاملة ونصفها انتظار.

وعينه تلتقط الفتيات الجميلات وهن يعبرن أمامه:

"شعر ذهبي يلمع تحت أضواء المطعم، بشرة وردية كأنها خرجت للتو من لوحة زيتية، قوام ممشوق يتحرك بثقة"

لم يكن ينظر إليهن بشهوة، بل بشيء يشبه الحنين إلى قصة لم يعشها بعد، وكأن كل واحدة منهن تحمل مفتاحًا صغيرًا لصندوق حلمه الكبير.

يراقبهم جميعًا، رجالًا ونساءً، بملابسهم اللامعة، وضحكاتهم الخالية من القلق، وحركاتهم التي توحى بأنهم يعرفون أماكن أقدامهم في الدنيا جيدًا . في الجامعة، ظلّت علاقاته محدودة، لا تتجاوز تبادل الكلمات داخل قاعة المحاضرات، وكأنه يتأمل زميلاته من خلف زجاجٍ شفاف؛ حتى جاء يوم وقال له صديقه سالم وهو يربّت على كتفه:

'بص يا منصور، لو ناوي بجد تتجوز واحدة من بنات مصر وتعيش هنا، يبقى لازم من دلوقتي تبدأ تتعلم تتعامل معاهم. تقرب شوية من طريقتهم، من عاداتهم وتفكيرهم... غير كده هتفضل غريب، حتى لو قعدت هنا طول عمرك.'

ابتسم منصور بصمت، محتفظًا بمسافة آمنة بينه وبين أي علاقة، مؤمنًا أن الاقتراب قبل أن يحقق مكانته قد يهدد حلمه الذي طالما خاف أن ينكسر قبل أن ينضج.

ولابد من تحقيق حلمه الأقرب أولًا، أن ينتقل من كونه يحمل الأطباق إلى وظيفة "كاشير"؛ أن يصبح الرجل الذي يتحكم في أرقام الإيراد اليومي، ويعرف خريطة المطعم المالية كما يعرف النادل أماكن الطاولات. وعندما ظهرت نتيجة السنة الثانية في الجامعة بتقدير امتياز، حمل منصور تفوّقه كوسامٍ على صدره، وتوجّه به إلى حسين بك، صاحب المطعم.

كان حسين قد تجاوز الخامسة والثلاثين، وسيم الملامح، يكسو وجهه هدوءٌ واثق، ينتمي إلى عائلةٍ عريقة، حضوره قوي، كلماته قليلة لكنها موزونة؛ يزن الرجال بميزان التجربة، ويلتقط بريق الطموح في العيون بنظرة من يعرف كيف يزيح الغبار عن الجواهر.

توقف منصور أمامه، وقال وهو يمد ورقة النتيجة:

"أنا آسف على التأخير يا حسين بك... أتأخرت خمس دقائق علشان كنت بشوف النتيجة".

ابتسم حسين وقال بهدوء:

"خير يا منصور... عملت إيه؟"

اقترب منصور وجلس بجواره، ثم قال بفخرٍ ممزوجٍ بالتوتر:  
"امتياز".

لمعت عينا حسين، وقال وهو يربت على كتفه:

"ألف مبروك... ليك مكافأة عندي".

- رد منصور بسرعة، وكأنه كان ينتظر تلك الجملة:

"أنا مش عايز مكافأة... أنا عايز أشتغل بشهادتي".

- هزّ حسين رأسه بدهشة، وقال وهو يرفع حاجبيه:

"بس لسه مخلصتش الكلية؟"

- أجاب منصور بحذر، وعيناه لا تفارقان الكاونتر:

"أنا مش طالب مجاملة، أنا طالب فرصة أشتغل بجد، وأثبت نفسي".

تأمل حسين ملامحه ملياً، ورأى في عينيه بريق طموح يبحث عمّن يوقده.

ابتسم ابتسامة خفيفة، كأنها إشارة صامتة بأنه قرأ ما بين السطور، ثم

نهض من مكانه، وأشار إلى الكاونتر قائلاً:

"الفرصة ليك... الكاونتر مستنيك".

جلس خلف الكاونتر لأول مرة، كأنه يعتلي أول درجات منصة أعلامه،

يحمل ثقل المسؤولية على كتفيه، في عينيه الحادثين بريق طموح لا يلين،

شعره المجعد المتناثر فوق جبهته أضفى على ملامحه مسحة حيوية

شابة توازن وقار نظارته الطبية، أصابعه تتحرك بسرعة ودقة بين دفاتر

الإيراد والنقود، كمن يحاول أن يثبت للعالم — وربما لنفسه أولاً — أنه

جدير بهذه المكانة.

في تلك اللحظة، لم يكن منصور مجرد موظفٍ جديد؛ بل رجلٌ يبدأ معركته الأولى مع المدينة، وفي قلبه يقينٌ أن ما ينتظره أكبر بكثير، هذه الوظيفة الجديدة لم تمنحه فقط شعورًا بالأهمية، بل فتحت أمامه نافذة أوسع على عالم الأثرياء؛ يلمس النقود التي يدفعونها بلا اكتراث، ويستمتع لأحاديثهم عن رحلاتهم ومشترياتهم كما لو كانت تفاصيل يومية عادية، عينه تلتقط الفتيات الجميلات وهن يعبرن أمامه:

شعر ذهبي أو بني فاتح، بشرة وردية، عطر أوروبي يسبقهن بخطوة، وملابس أنيقة تكاد تلمع تحت الإضاءة. كانت فتاة أحلامه مزيجًا من كل ذلك:

مصرية شقراء، بملابس مصممة بعناية، تتحدث معظم كلماتها بالإنجليزية كما لو كانت اللغة الأم... يتخيلها:

" تجلس معه على طاولة في مقهى فاخر، تضحك بخفة، وتنظر إليه بعينين فيهما دهشة وإعجاب... إعجاب برجل استطاع أن يصعد من قاع السلم حتى وصل إليها."

ولأجل هذا الحلم، وضع خطة محكمة منذ لحظة تخرجه المرتقبة من الجامعة والتحاقه بوظيفة حكومية بعقد يومي، براتب ثلاثة آلاف جنيه، إضافة إلى راتبه في المطعم البالغ أربعة آلاف جنيه، قرر أن يدخر كامل راتب المطعم، ونصف راتبه الحكومي، ليصل دخله المدخر سنويًا إلى نحو ستة وستين ألف جنيه، هذا المبلغ سيضعه في البنك بعناد وصبر، حتى إذا مرت سنة، أضاف عشرة آلاف فوائد ليصبح المجموع في السنة الثانية مائة وأربعين ألف جنيه، وفي الثالثة مائتين وعشرين ألفًا، وهو مبلغ كافٍ — في حساباته — لبدء أول خطوة في طريق حلمه: شراء سيارة، يفتح بها

الباب إلى عالم الوجاهة.

طبيعة عمله الجديدة كمسؤولٍ عن إيراد اليوم ، وحساب الطاولات،  
وصرف السلف العاجلة لشراء المستلزمات الفورية جعلته أكثر احتكاكاً  
بـ"شيف" المطعم، رجل في العقد الخامس من العمر، أبيض الوجه، ضيق  
العينين، شعره الأحمر المجعد كان يلمع تحت أضواء المطبخ.

كان الشيف مصرّاً على التعامل مع بعض الموردين بعينهم، ورغم أن  
منصور يعلم يقيناً أن الرجل يتقاضى عمولات من هؤلاء الموردين، إلا أنه  
غض الطرف... لا كالأعمى الذي لا يرى، بل كالبصير الذي يختار ألا يرى،  
كرفيق يعرف قوانين اللعبة ويجيد الصمت.

ذات مساء، كان الشيف أحمد يقلب أواني المطبخ الكبيرة بينما يراجع مع  
منصور فواتير الموردين.

قال الشيف، وهو يرش الملح على قدر يغلي:

"الشغل هنا زيه زي الطبخ يا منصور... شوية توابل زيادة يبوظوا الطعم،  
وشوية نقص يخلوه باهت".

رفع منصور رأسه من فوق الدفاتر، وقال بهدوء:

"بس الفرق يا شيف... إن الطبخة ممكن تتصلح، إنما الغلطة في الحساب  
بتخلّي الميزان يختل".

ضحك الشيف بصوت خافت وهو يضع الغطاء على القدر:

"اللي يعرف يظبط النار، يعرف إمتى يسيبها تعيش لوحدها... مش كل  
حاجة تتقلب بالمعلقة".

أجاب منصور وهو يقلب صفحة الإيرادات بعناية:

"وأنا اللي اتعلمت إن الأرقام ما بتتحركش لوحدها... لازم حد يوجّهها، وإلا  
هتتحرق".

رمقه الشيف بنظرة إعجاب خفية، ثم قال وهو يناوله طبقاً من اللحم المشوي:

"جرب الطعم دا... اتسوى على نار هادية، زيه زي بعض الناس اللي تعرف تستنى وقتها".

ابتسم منصور، وتناول الطبق قائلاً:

"واللي بيستنى وقته يا شيف، دايماً بيكسب في الآخر... حتى لو الحساب طويل".

كان هذا الصمت محل تقدير من الشيف أحمد، يرسل له وجبات طازجة يوميًا، وكأنه يوقع على اتفاق غير مكتوب بينهما، تلك الوجبات الكريمة جعلته يدعو سائق سيارة المطعم مرات عديدة على الغداء، وكردّ جميل لتلك المودة الخفية، تبرع السائق بتعليمه قيادة سيارة المطعم... كخطوة أخرى ضرورية لتحقيق حلم امتلاك سيارة.

قال السائق ذات مساء، وهما في الشارع الخلفي الخالي:

"شدّ الدركسيون على مهلك ... العربية لازم تحس إنك صاحبها، مش راكب غريب".

ضحك منصور وقال مازحًا:

"يا سطي رزق، دي عربية مش واحدة هحبها".

ضحك رزق وهو يشعل سيجارته:

"ما هي العربية زيّ الست ... لو ما سايستهاش، هتعند معاك، وتسيبك في نص السكة".

تلك الأفعال لم تمر على حسين بك مرور الكرام؛ كان يلتقط التفاصيل كما يلتقط الصياد ارتعاشة الماء قبل أن يظهر السمك، يقرأ في تصرفات منصور ملامح رجل يعرف كيف يمشي بين الألغام دون أن يثير الغبار.

حسين، بعينِ خبرت الوجوه وصقلئها التجارب، كان يعرف كيف يميّز المعدن النفيس وسط الركام، ورأى في منصور بريقًا مكتومًا يحتاج فقط إلى من يمد يده ليكشفه للنور.

كان يراه شابًا يفهم متى يتكلم ومتى يصمت، يكسب القلوب دون أن يفرط في كرامته، ويخفي خلف هدوئه عقلًا يحسب للمستقبل، وصبرًا لا يملكه إلا من يعرف أن النجاح يُصنع في الظل، خطوة خطوة، حتى يحين موعد الظهور.

يدرك جيدًا أن صمته أمام لعبة الموردين سيكسب منصور خبرة التعامل مع أفضلهم، وأن هذا النوع من الرجال هو الذي يمكن أن يُعوّل عليه حين يحين وقت التوسع وفتح الفرع الجديد لمطعمه على ضفاف النيل...

\*\*\*

كان ذلك اليوم بالنسبة لمنصور أشبه بيوم ميلادٍ جديد، خرج من البنك بخطواتٍ واثقة، وكأنه يسير فوق أرضٍ لا يطأها سواه، في يده حقيبة صغيرة تحتضن ثمرة سنواتٍ طويلة من الكدح، مائتين وعشرين ألف جنيه جمعها جنيهه فوق جنيهه، وكل جنيهه منها يحكي حكاية تعبٍ وسهرٍ وصبر. وفي لحظةٍ بدت له مفصلية في حياته، دفع المبلغ كاملًا ليقتني سيارة جديدة "فابريكا" موديل ٢٠٠٥.

حين سلّمه الموظف المفاتيح قال مبتسمًا:

"مبروك يا باشا، أول عربية ليك؟"

ابتسم منصور وتلمّس بأنامله حواف السيارة، وكأنما يختبر حلمًا طال انتظاره، وقال بنبرة واثقة يخالطها التواضع:

"لا بس قولت اجرب إحساس الزيرو"

أمسك بالمقود بحنانٍ يشبه ضمّة حبيبته الأولى، وشعر بارتعاشة فخر

تسري في جسده، هذه ليست مجرد سيارة، بل حصاد سنوات من العمل المرهق، وأمسيات المطعم الثقيلة، والادخار القاسي الذي حرم نفسه فيه من كل نزوة، في كل ضغطة على دواسة البنزين، كان يسمع صدى صوته الداخلي يقول:

"نجحت... أنت واحد منهم الآن."

يلمح انعكاس ملامحه في الزجاج الأمامي، فيراها ملامح رجل آخر... أكثر قوة، أكثر أهمية، وكأنه يسير فوق سجادة من المجد، وحين اقترب من حارته، تخيل وجوه الجيران وهي تلاحقه بنظرات الدهشة والإعجاب، كما لو أن وصوله بهذه السيارة شهادة رسمية على أنه تجاوز حدود الماضي. مرّ أمام مقهى الحارة فسمع أحدهم يقول لصاحبه:

"بص يا عم ده منصور! اشترى عربية زيرو!"

"من ساعة لم سكن هنا وأنا بقول عليه دماغه حلوة."

ركن سيارته ونزل منها بثقة المنتصر، كأنما يعلن للشارع أنه صار واحدًا من أبناء الطبقة الميسورة. لكن ما إن بدأ صعود درجات السلم الضيق، متفاديًا الحوائط المتآكلة، حتى أخذ شعور غريب يثقل صدره، وحين بلغ سطح المنزل ودلف إلى غرفته الصغيرة، اصطدم بعينيه مشهد الجدران المتقشرة، والسريّر الحديدي الصدئ، والنافذة التي بالكاد تسمح للضوء بالتسلل.

عندها أدرك التناقض الصارخ بين الصورة التي يعرضها للعالم والحقيقة التي يعيشها، سيارته اللامعة، التي ظنّها بوابة إلى عالم آخر، لم تكن سوى قشرة براقّة تخفي هشاشة روحه، وتفضح أن الطريق إلى ما يتوق إليه لا يزال طويلًا ومرهقًا. لم يستسلم لخدلان اللحظة؛ جلس على حافة سريره الحديدي، وعقله يرسم الخطة التالية:

"الادخار من أجل شقة، في منطقة راقية تليق ببقاء العروس المنتظرة. " بدأ يقلب صفحات الجرائد، يتفحص الإعلانات في الأحياء المميزة، متوسط السعر: أربعمائة ألف جنيه كاش، وبالتقسيط يتجاوز النصف مليون. راتبه الشهري بعد الترقية لا يتعدى عشرة آلاف جنيه، ولو ادخره كاملاً، فسيحتاج إلى أربع سنوات ليبلغ الهدف... وسيكون وقتها قد أتم الثلاثين.

ابتسم في هدوء، وكأنما يعلن التحدي لنفسه:

"ولِمَ لا؟... نبدأ المشوار من الآن."

لكن السنوات لا تجري على هوى الطموحات، فبعد مرور أربع سنوات من الادخار الصارم، كانت الأسعار قد قفزت للضعف، لتصبح الشقة التي حلم بها بعيدة كما كانت يوم خطط لشرائها، وكأن الزمن نفسه يتآمر على أحلامه.

ظل غارقاً في شروده، يطارد بأفكاره أرقام الأسعار وخطط الادخار، قاطع أفكاره صوت طرقات خفيفة على الباب.

نهض ببطء وفتحته، فإذا أمامه آية من آيات الجمال؛ شعراً ذهبي طويل ينسدل في نعومة، عينان زرقاوان صافيتان، وقوام ممشوق ينسجم تماماً مع وجهه باهٍ يفيض بالحياة.

تسمر في مكانه، يتأملها كمن يحاول استيعاب ما يراه، حتى نطقت بصوت فيه مسحة دعابة:

" مش فاكربي؟ أنا حنان."

ارتد خطوة إلى الخلف، وكأنه يتراجع في ذاكرته يبحث عن ملامح قديمة تاهت مع السنين... أيمكن أن تكون هي حنان بنت بلدته؟ وقبل أن يكتمل سؤال عقله، قطعت هي حبل أفكاره بابتسامة ريفية،

مازالت تحمل دفاء الطين ورائحة الأرض:

"أنا بقدم في الجامعة، والدتك إدتني العنوان... قالت لي لو احتجت حاجة ألاقيك هنا"

أسرع يغلق باب غرفته خلفه حتى لا تراها، والتفت إليها قائلاً بصوت حاول أن يبدو هادئاً:

" من الأفضل نقعد في مكان تاني."

لم تتردد، نزلت خلفه بخطوات سريعة كمن يلاحق فرصة لا تُفوت، لكنّه أوقفها لحظة أمام السيارة، ثم تقدم وفتح لها الباب بنفسه.

لمعت عيناها بوميض خاطف، وابتسمت ابتسامة صغيرة تحمل شيئاً من البراءة... أو هكذا أرادت أن تبدو.

ارتجف قلبه لحظة، كأن القرية كلها باغتته في هيئة فتاة واحدة. راقبها وهو يجلس خلف المقود كانت تحمل ملامح فتاة حلمه... ابتسامتها الهادئة تطمئن القلوب، وعيناها الزرقاوان تلمعان كسماء صافية، وانسجام ملامحها كلوحة متقنة.

وما إن بدأ قلبه يلين حتى تسَلل صوت جدته من أعماق بعيدة، يعلو كأنه خارج من تراب الدار القديمة، المبللة بالوصايا:

"إوعى يا بني تتجوز من بلدك... هتندم طول عمرك، وتدفن نفسك وولادك في الطين... شوفت أبوك؟ ضاع عمره لما اتجوز أمك، وانتهى في غبار القرية".

كان صوتها كصفعة توقظه من حلم قصير، يذّكره أن بينه وبين حنان مسافة أوسع من الطريق الفاصل بين القرية والقاهرة، أصلها القروي بالنسبة له حاجزاً خفياً لا يندهم، مهما حاول قلبه تجاوزه، إعجابه بها لم يبدد يقينه، بل عزّز تصميمه على تحقيق حلمه المعلق منذ ليالي القرية

الطويلة، حين كانت جدته تحكي له الحكايات وكأنها وصايا مقدّسة. يرافقها بين مكاتب الموظفين، يساعدها في تقديم أوراقها إلى كلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزية، وكل خطوة تبدو له كأنها أداء لوعده عائلي راسخ في أعراف القرية وروابطها الاجتماعية.

وبعد أن أتمّت جميع الإجراءات، لم يغفل البحث لها عن سكن آمن في بيت الطالبات التابع للجامعة، فباتت في مأمن، محاطة بالهدوء والنظام. ومنذ ذلك اليوم، صار بينهما موعد ثابت في كل إجازة له، يطمئن خلالها على أخبارها، ويقدم لها المساعدة بما يتوافق مع حدود التقاليد والاحترام، وكان هذا الموعد طقساً يعيده إلى ذاته الريفية وهو بين صحب المدينة. لكن حضورها إلى منزله في ذلك اليوم قلب كل خطته، فكان عليه أن يعيد طلاء غرفته، ويحول الحمام إلى داخل الغرفة، وينظم الروف بنباتات الزينة، ليتمكن من تصالح نفسه مع الوضع الجديد. امتلاك سيارة حديثة جعله يشعر بثقل المسؤولية الجديدة، وكان على عاتقه واجب أن يظهر صورة رجل جدير بثقة الفتاة وأهلها، حتى لو اضطر هذا إلى تأجيل حلمه الأكبر:

"شقة تليق بالعروس المنتظر، حلم لم يكن يجرؤ على تحقيقه قبل أن يثبث نفسه أولاً في عالم المدينة المعقد."

وفي أحد هذه اللقاءات، فوجئ بها تحضر لمطعمه مرتدية فستاناً أحمر قاني، وقد أطلقت شعرها الذهبي يتدفق على كتفيها في انسياب مقصود الجمال، فبدت له وكأنها خرجت من إطار قريتها إلى عالم آخر... عالم يشبه ما رسمه في خياله عن بنات القاهرة الأنقيات.

ورغم أن مظهرها ودراستها للإنجليزية جعلها أقرب كثيراً لصورة فتاة أحلامه، ظل يرى في أعماقها ذلك الختم الخفي لبنت القرية... الختم الذي

حدّرتَه جدته منه دومًا، بأن الزواج من بنات بلدته يجرّه هو وأبناءه إلى نفس الأرض التي دفنت أحلام أبيه من قبل.

- نظر إليها بتساؤل، ثم قال بصوت خافت:  
"إحنا اتغيرنا خلاص"

- ابتسمت ثم قالت، مع لمحة من قلق واضح في عينيها:  
"إنت كام سنه يامنصور"

- قال وهو يرمقها بنظرة مفعمة بالدهشة:  
"اثنين وثلاثون... كثيرًا!"

- ظلت صامته للحظة، ثم همست بكلمات كأنها تخرج بصعوبة:  
"ليه ما اتجوزتش لغاية دلوقتي؟"

- ابتلع ريقه، ثم رد بصوت ثابت، وكأنه يحافظ على قسم قديم محفور في وجدانه:

"عايز اجوز واحده من مصر"

- ارتجف قلبها للحظة، لكن ملامحها تماسكت وظلت صامته.  
- حرّك رأسه في صمت، ثم قال بصوت أقرب إلى الهمس:

"أنا من ساعة ما نزلت مصر وأنا بحضّر لتحقيق الحلم ده".

- ابتسمت ابتسامة غامضة، قصيرة وخافتة، وتغير وجهها، ثم همست:  
"ربنا يوفقك".

انسحبت بخفة، كأنها تتلاشى في الهواء، تاركة خلفها صمًًا ثقيلًا، يشبه صدى قرون من الحكايات التي لم تُرو.

"كانت حنان تعرف أن ما بين جدته وأمه لم يكن خلافًا عابرًا بل صراعًا ممتد الجذور، متشابكًا كأغصان شجرة عتيقة تحجب النور عن أي حلم يولد، جذور الألم تلك امتدت حتى طوقت والد منصور، حين اختار -

رغم معارضة أمه - الزواج من أهل قريته، ظن أنه يصنع بداية، لكنه في الحقيقة كان يغلُق على نفسه بابًا تلو الآخر، ومع مرور السنوات، أرهقته كثرة الإنجاب، واستنزفته المسؤوليات، حتى انطفأت آخر شرارة حلم في عينيه، وغدا ظلًّا لرجل، محاصرًا بواقعه، لا يملك من المال ما يكفي ليشتري حتى وهم الحرية."

أدركت في تلك اللحظة أن حلم منصور ... في المدينة، في الفتاة التي نسجها خياله، وفي الحياة التي رسمها لنفسه منذ أن بدأ يعي أن الاختلاف ليس عيبًا، وأن النجاة أحيانًا تبدأ بالهرب من ماضي ثقيل وأحلام أبٍ انكسرت قبل أن ترى النور.

\*\*\*

في أحد الأيام، وبينما كان حسين بك يتفقد الصالة، لمح حنان تدخل المطعم بخطوات حذرة، تبحث بعينها عن منصور وكأنها في مأمورية خاصة.

- تقدمت نحوه وسألته عنه بنبرة امتزج فيها الفضول بالقلق:

"مستر منصور مش هنا؟"

- ابتسم وقال بهدوء:

"على وصول".

- ثم دعاها للجلوس، وأشار للنادل قبل أن يسأل:

"تاكلي إيه؟"

- نظرت إليه بخجل ريفي أصيل، وقالت بصوت مرتجف:

"لا، ألف شكر... مش جعانة".

- أومأ للنادل بتنفيذ أمره، ثم انسحب إلى طاولة بعيدة، مانحًا إياها مساحتها الخاصة.

كانت ترتدي ملابس متواضعة بلا مساحيق تُذكر، لكن في عيني حسين، كان الأمر أشبه برؤية جوهرة مطموسة تحت طبقة من الغبار.... تخيلها بفستان راقٍ، وحذاء أنيق، وقطعة إكسسوار صغيرة تلمع عند عنقها، ووجه يزداد إشراقاً بلمسات ماكياج خفيفة تحفظ ملامحها الأصلية. في خياله، إذا نفضت عنها غبار القرية ستصبح شابة تنافس أجمل فتيات القاهرة، وربما تتفوق عليهن بجاذبية لا تُشترى ولا تُصنع. راقب كيف ترفع الملعقة برفق، وكيف تميل برأسها قليلاً وهي تتذوق الطعام، وكيف تتبدل ملامحها بين الحذر والامتنان. حتى جاء منصور وجلس إلى جوارها، لكن عيني حسين لم تبتعدا عنها لحظة. كان يتأمل ميل جسدها إلى الأمام حين تصغي، ورسم أصابعها لدوائر صغيرة على الطاولة، ولمعان عينيها حين تضحك فيرتفع كتفها الأيسر قليلاً، كما لو كانت تخفي سرّاً.

\*\*\*

في إحدى الليالي الهادئة، بينما كان المطعم يلفه صمت المساء، اقترب حسين بك من منصور بخطوات مترددة، وفي عينيه بريق خافت، لا هو يقين ولا هو شك، قبل أن يهمس:

"إيه رأيك... أرتبط بقريبتك حنان؟"

"توقفت الدنيا للحظة. منصور، الذي طالما حمل عبء تلك العلاقة كمن يحمل حجارة على صدره، شعر وكأن الهواء صار أخف، وكأن شيئاً ثقیلاً انزاح فجأة عن روحه، بوابة تُفتح على مصراعيها نحو حلمه المؤجل، ذلك الحلم الذي ظل يراوده كطيفٍ بعيد، لا يقترب إلا حين يبتعد عن كل ما يربطه بالماضي."

حنان، وكأنها كانت تترقب هذه اللحظة منذ زمن، لم تتردد. وافقت بحسبِ

يشبه نهاية فصل طويل من حياة منصور، فصل امتلاء بالالتزامات والقيود، وانتهى أخيرًا بقرار واحد.

وفي لحظة امتنان، قرر حسين بك أن يكافئ منصور على سنوات من الإخلاص والصبر، فرفع منصبه إلى مدير المطعم، وزاد راتبه بعشرة آلاف جنيه. لم تكن مجرد ترقية، بل كانت إعلانًا لبداية جديدة، فصل مختلف، أقرب إلى الحلم الذي حمله منصور معه منذ أن وطأت قدماه أرض مصر... الحلم الذي بدأ أخيرًا يتشكل، لافي الخيال، بل في الواقع.

منذ أن أصبح مديرًا للمطعم الشهير، شعر منصور أن الحياة بدأت أخيرًا تفتح له أبوابها، لم يعد ذلك الشاب الذي يراقب المدينة من خلف الزجاج، بل صار جزءًا من مشهدها النابض؛ يتحرك بثقة بين الطاولات، يوقع القرارات، ويدير التفاصيل الصغيرة والكبيرة، ومع كل يوم جمعة، كان الإحساس يزداد بأن شيئًا كبيرًا يقترب.

\*\*\*

في ركن هادئ في الفرع الجديد للمطعم على ضفاف النيل جلست "مها" مع عائلتها على طاولة تطل على الحديقة الداخلية، ترتدي فستانًا أنيقًا بلون سماوي هادئ، ينساب على جسدها برشاقة، تتدلى عند معصمها ساعة ذهبية رفيعة، وتعلو كتفها جاكيت أبيض خفيف يبرز صفاء بشرتها وشعرها الأشقر الذي يتلألأ تحت أضواء القاعة. أمها، سيدة أنيقة الطلة، تنطق ملامحها بالرقى، وأبوها رجل ذو حضور وقور، يكسوه ثقل الخبرة والمكانة، أشقاؤها الصغار كانوا يتحركون بانضباط، ترافقهم خادمة بزي أنيق، وحين انحنى أحدهم ليلتقط شيئًا من الأرض، مالت نحوه "مها" وقالت بصوت ناعم بالإنجليزية:

"Don't pick it up, just leave it... the waiter will handle it."

ثم ابتسمت وهي تربّت على كتفه بحنانٍ واثق، كأنها اعتادت أن تكون مرآة عائلتها الراقية.

كان المشهد كله أشبه بلوحة خرجت من حلم قديم عاشه منصور، ظل يراقبهم طويلاً، ثم اقترب بخطوات مدروسة، وقف أمام الطاولة بابتسامة هادئة، وعرّف بنفسه لأبيها وهو يسأله عن رأيه في الطعام، لمح عيني مها تتبعه، وكأنها تحفظ ملامحه في ذاكرتها، انسحب بعدها برفق، وأمر بإرسال طبق فاكهة فاخر كهدية من المطعم.

بعد أسبوع، وفي ظهيرة يوم خريفي، وجدها أمام مكتبه. بفستانها الأزرق الذي يعانق تفاصيلها برقّة، وشعرها الأشقر الطويل ينسدل على كتفها مثل خيوط الضوء، ووجهها الأبيض يضيء المكان.

- اقتربت بخطوات واثقة، ابتسمت بشفتيها الممتلئتين، وقالت بصوت دافئ:

"مستر منصور، كنت حابة أعمل عيد ميلادي هنا في المطعم".

شعر وكأن الزمن توقف، ابتلع ريقه قبل أن يهمس بدهشة:

"مش ممكن... سبعة عشر سنة مرت بسرعة كده؟"

ضحكت، ضحكة أضاءت ما حوله، ثم قالت وهي تلمع بعينيها:

"قصدي... خمسة وعشرين سنة".

حدّق فيها بدهشة أكبر، وكأن شيئاً في داخله يستيقظ بعد سبات طويل:

"مش ممكن... لا أصدق".

كانت تلك اللحظة بداية فصل جديد، لم يكن في حساباته، لكنه كان يسكن قلبه منذ زمن بعيد، عيد ميلادها فرصة ذهبية ليتأكد من أمر ظل يؤرقه:

"هل هي مرتبطة؟"

وحين أدرك أنها ليست كذلك، قرر أن يجعل هذا اليوم مختلفًا، قدّم لها تخفيضًا هائلًا، حتى أنها وقفت لحظات تحاول استيعاب هذا الكرم غير المعتاد، بينما كان هو يبالغ في الاهتمام بكل التفاصيل، من ترتيب الطاولات إلى اختيار الورود، وكأنه يهيئ المكان لحدث أكبر بكثير من مجرد احتفال.

-اقتربت منه في لحظة هدوء، وهمست بخجل، وعيناها تلمعان بمزيج من الدهشة والابتسامة:

"مستر منصور... ده عيد ميلاد، مش فرح".

-ردّ بصوت منخفض، كأن الكلمات انزلت من بين شفثيه دون أن يخطط لها:

"كنت أتمنى... يكون فرحنا".

تورد وجهها، وابتسمت بخجل، ثم انسحبت ببطء، تاركة خلفها صمتمًا دافئًا يشبه الوعد.

\*\*\*

انطلقت أصوات العاملين في الفرع الجديد للمطعم على ضفاف النيل، بهمساتٍ متسارعة تثنى بحدثٍ غير عادي:  
"حنان هانم وصلت".

توقف النادل عن ترتيب الكؤوس للحظة، والتفت الشيف احمد برأسه من خلف الزجاج، حتى الحارس عند الباب استقام في وقفته كأنه في حضرة شخصية رفيعة...دخلت "حنان" بخطوات واثقة، ترتدي فستانًا بسيطًا لكنه يفيض أناقة، وشالًا خفيفًا ينساب على كتفيها، خطواتها ثابتة، محسوبة، يسبقها السائق الخاص كمن يفتح الطريق أمام ملكة، وتلحق بها الخادمة الفلبينية وهي تدفع عربة طفلها الصغير، في مزيج أنيق من

السلطة والحنان.

لم يكن حضورها زيارة عابرة، بل دخولاً يليق بمشهد من فيلم فاخر، كل الأنظار تعلقت بها؛ ملامحها، أزيائها، حتى طريقة إمساكها بحقيبتها، تحمل ثقة امرأة تعرف مكانتها.

مع منصور، كانت كلماتها قليلة، نبرتها رسمية، لكن عينيها تخفيان بقايا معرفة قديمة، تراجع الحسابات بعين خبيرة، تبدي ملاحظاتها بلطف لا يخلو من الحزم، ثم تتجه إلى طاولتها الخاصة، في انتظار زوجها حسين بك، الذي بات اسمه يتردد في مجالس المال والأعمال، يقترب بخطى ثابتة نحو نادي المليونيرات.

وحين يدخل، يطبع قبلة على يدها أمام الجميع، بابتسامة رجل يعرف قيمة الجوهرة التي يملكها، في تلك اللحظة، لم تعد حنان في نظر العاملين:

"زوجة رجل الأعمال فحسب بل أيقونة، سيدة مجتمع لها عالمها الخاص، عالم يلمع كما يلمع سطح النيل تحت شمس المغيب." شعر منصور بشيء يتبدل داخله.

حنان لم تعد تلك الفتاة الريفية التي عرفها، بل تتفوق على بنات المدينة في أنافتها، في رقيها، في طريقة تعاملها مع العاملين، وحتى في نظرة زوجها لها، تلك النظرة التي تحمل احترامًا واعترافًا بمكانتها... شعر بالارتباك، كأن الحلم الذي رسمه بدأ يتداخل مع الواقع، الصورة التي رفضها يومًا بدأت تكتسب ألوانًا جديدة.

هل كان مخطئًا؟

هل كانت حنان، رغم كل شيء، هي النموذج الذي بحث عنه؟

أم أن مها، بفستانها الأزرق، لا تزال تحمل المفتاح إلى حلمه القديم؟

وقف منصور بين صورتين، بين ماضٍ يعيد تشكيل نفسه، ومستقبل ينتظره على طاولة عيد ميلاد.

ظل منصور خلف الشرفة الزجاجية للمطعم، يراقب أضواء عيد الميلاد وهي تتكسّر على الأرض، وكأن كل شعاع منها يتفتت داخله، يتأمل مها وهي تجلس في ركن مزين بالبالونات، تبتسم بخجل، تتحدث بصوت منخفض، كأنها تحاول أن تتماهى مع المكان دون أن تترك فيه بصمة، لطالما ظن أنها الحلم الذي رسمه في خياله لسنوات:

" الفتاة المصرية الرقيقة، الجميلة، التي تشاركه الطريق."

لكن شيئاً في المشهد بدأ يتهاوى. ابتسامتها الخجولة، ثقتها المهزوزة، غياب اللعان الذي رآه في حنان حين دخلت المطعم ذات يوم ... كل ذلك جعله يدرك الحقيقة التي لم يكن مستعداً لسماعها:

"مها، مهما كان جمالها، لن تملأ الفراغ الذي يسكنه طموحه."

لم يكن يقارن بين امرأتين، بل يزن بين لحظةٍ عابرةٍ وأخرى تُشعل المعنى في كل تفاصيله... قلبه لم يعد يفتش عن دفءٍ مؤقت، بل عن حضورٍ يُغيّر الإيقاع حينما يملأ المكان، يملأ الهواء من حوله كما تفعل حنان اليوم.

وفي تلك اللحظة، انكشفت الرؤية: كل شيء بدأ واضحاً، وكل خيطٍ من المشاعر أصبح معلناً، كأن الزمان توقف ليشهد لحظة الإدراك. انكشفت الرؤية:

"ما قتل أحلام أبيه لم يكن زواجه من أمه الريفية، بل رضاه بحياة لم يحاول أن يغيّرها."

أما حسين، فقد منح حنان فرصة أن تعيش خارج أسوار القرية، مسح عنها غبارها، وصاغها من جديد كجوهرة تلمع في قلب المدينة.

العبرة، فهمها منصور أخيراً، أن الرجل هو من يصنع حياة من يحب، لا أن

يشكلها في مرآته... ابتسم ابتسامة خفيفة، كمن يدفن وهمًا قديمًا، وأدار ظهره لمها، واضعًا خطة ادخار جديدة... لا ليجد جوهرة جاهزة، بل ليصنعها بيديه.

تمت

(٩)

قبضة من حريس

في حضن الشمس المحرقة،

لا ينمو شيء... حنى الحب.

كان حسين أبيض الوجه، ينساب على جبينه شعْرٌ أسود مجعّد، تحيط به عينان سوداوان ضيقتان تلمعان بذكاءٍ وحذر، عريض المنكبين، ممشوق القوام، يحمل هيبَةً تسبق خطواته.

ورغم ملامحه القوية، كان شابًا مهذبًا، بارًا بالديه، ينعم بحياة رغبة بين أحضان أسرته العريقة، داخله إحساس دائم بالمسؤولية، كأنه وُلد ليقود من حوله ويوجّههم، غير أن هذا الإحساس لم يخلُ من شيءٍ خفي من الغرور، يختبئ وراء نبل مقصده.

أما محمود، فكان وسيم الطلعة، معتدل الطول، ممشوق القوام، تزين رأسه خصلات شعر كستنائي ناعم يفرقه من المنتصف بانسياب أنيق، تحيط به عينان سوداوان واسعتان، تحملان شيئًا من البراءة والدفء، يتحلى بصبر أبناء الطبقة فوق المتوسطة؛ ذاك الصبر الذي يُهذّب الطباع ويكسبها قوة هادئة، بدا وديع الملامح، غير أن هدوءه كان يخفي سرعة بديهته لافتة، وقدرة فطرية على قراءة أغوار نفوس المحيطين به.

ينظر إلى الحياة بعين فلسفية، كأن الأحداث عنده إشارات أعمق مما تبدو، لم يسعَ يومًا إلى قيادة الآخرين بالسطوة أو المكانة، بل بلمسة ناعمة من الإصغاء والإقناع الهادئ، فيتّبعه الناس طواعية، وكأنهم يختارون ما أَرادَهُ هو.

كان رحيل والده المبكر قبل امتحانات الثانوية العامة صدمةً تركت أثرها في قلبه، وألقت على عاتقه عبئًا ثقيلًا، لكنه واجهه بصبرٍ هادئ يشبه وقار الرجال.

\*\*\*

في كل صباح، يُعد الخادم فطور حسين بعناية، ثم يصعد السائق إلى منزله، يحمل حقيبته المدرسية، ويفتح له الباب الخلفي للسيارة الفارهة، وفي طريقه إلى المدرسة، يمر على منزل صديقه محمود ليصاحبه معه، كعادة يومية لا تنقطع.

كان حسين يشعر دومًا بالمسؤولية تجاهه، رغم أنهما في العمر سواء، ويجلسان جنبًا إلى جنب في ذات المقعد داخل الفصل. تضاعف هذا الشعور بعد وفاة والد محمود، قبل امتحانات الثانوية العامة بشهرين، فرأى في ذلك عبئًا ثقيلًا على صديقه، فاستضافه في منزله مرارًا، ليخفف عن أسرته أعباء الحياة، دون أن يُشعره يومًا بفضله أو مئة.

يُصرّ حسين عقب انتهاء المدرّس الخصوصي من الحصة على شرح ما شرحه له ، دون أن يطلب منه ذلك، وكأنه التزام على حسين أن يعوّضه عن عدم أخذ محمود دروسًا خصوصية.

تغاضى حسين عن تصرفات محمود، في مرحلة الثانوية التي كان يراها أخطاء صبيانية، وترفع عن لومه، بينما لم تكن في حقيقتها إلا أفعالًا عادية تمامًا في مثل عمرهما؛ اندفاعات صغيرة، وضحكات صاخبة، ولامبالاة طبيعية لشاب في سن المراهقة، غير أن عين حسين، المشبعة بروح المسؤولية وميل التفوق، كانت تفسرها دومًا كزلاتٍ صبيانية تحتاج إلى إرشاد وتقويم.

وحين كانا يسترجعان الدروس، لم يكن حسين يكفّ عن تنبيه محمود إلى

ملاحظات مهمة، لقناعته بأن ذكاه محدود، وأنه بحاجة إلى من يرشده.  
وفي ليلة إعلان نتيجة الثانوية العامة، نظر حسين إلى محمود بعمق وقال:  
"أنا مش قلقان... إلا عليك".

- ابتسم محمود وظل صامتًا، فتابع حسين:  
"بص، أنت هتنجح... بس مش هتجيب أكثر من ٥٨% "

- ضحك محمود وقال:

"رضا" ثم أردف:

"وأنت هتجيب كام؟"

- ابتسم حسين وقال:

" ٧٠% "

- قام محمود واحتضنه مازحًا، وقال ضاحكًا:

"ألف مبروك يا حسين!"

وفي اليوم التالي ظهرت النتيجة:

" حصل حسين على ٧٨%، بينما أحرز محمود ٦٨%، لم تكن النتيجة كما  
تنبأ حسين، ومع ذلك لم يرها على هذا النحو؛ بل تعامل معها وكأنها  
جاءت لتؤكد ما كان يقوله دائمًا:

"أن محمود سيظل بحاجة إلى من يقوده".

غاب عن ذهنه أن الـ٦٨% التي حققها محمود، في ظل فقدان والده قبل  
الامتحانات بشهرين، ورفضه الدروس الخصوصية من الأساس، تساوي  
بل وتفوق الـ٧٨% التي حصدها هو بالدروس والرعاية الكاملة، لكن  
حسين، المشبع بروح التفوق الموروثة، لم يكن يلتفت إلى تلك الفوارق،  
بل رأى ما أراد أن يراه فقط.

في اليوم التالي لظهور النتيجة، كانت السيارة الجديدة بمثابة هدية النجاح

لحسين، فأخذ محمود معه في جولة طويلة، كأنها احتفال صامت بانتصار متوقع.

التحق حسين بكلية الحقوق بسهولة، بمجموعه الذي أهله للقبول المباشر، بينما اضطر محمود إلى الانتظار قليلاً حتى يُقبل ضمن القائمة التالية للمقبولين.

ضحك حسين يومها وربت على كتفه:

"قلتك مش هيسيبونا، هما بس بيحبوا يعدّبونا شوية".

ابتسم محمود، لكنه شعر في أعماقه أن "السبق" لم يكن مجرد صدفة دراسية، بل بداية خيطٍ طويل سيبقى بينهما.

لم يكن حسين يوماً بخيلاً في عطائه، بل كان كريماً في كل شيء، حتى في مشاعره، حين تبادلا قيادة السيارة، قال له مرة:

"اعتبرها عربيتنا، مش عربييتي".

فرد محمود بابتسامة هادئة:

"وجودك جنبي بيخليني أحس إن كل حاجة ممكنة".

كانت السيارة، في نظرهما، أكثر من مجرد وسيلة تنقل؛ لم تُشترَ لتكون ملكاً لحسين وحده، بل بدت كجائزة لنجاحهما معاً، أو هدية مشتركة يتقاسمانها بغير حساب.

في فيلا العائلة بالمعمورة، قال والد حسين وهو يفتح باب الغرفة:

"دي غرفة محمود، محدش يقرب منها".

ابتسم حسين بفخر، وكأن كرم العائلة امتداد لكرمه الشخصي. غير أن كرم حسين لم يكن نبلاً فطرياً فقط، بل انعكاساً لإحساس داخلي بأنه يتمتع بمجدٍ لا يملكه غيره، فيفيض منه على الآخرين بثقة لا تهتز.

في السهرات، كان حسين يتولّى الحراسة غير المعلنة على محمود:

- خلي بالك من البنّت دي، شكلها مش مريح".

- يا حسين، دي مجرد دردشة!"

. مافيش حاجة اسمها مجرد... البداية دايماً كده".

كان صوته يحمل غيرة الأخ الأكبر، لكن في نبرته ظلّ خفي من التملّك، وكأنّ حسين قد نصب نفسه حارساً لمحمود، يخشى عليه من الانزلاق في أيّ خطيئة، يراقب اختياراته عن كثب، يوجهه بحذر، ويحدّد له ما ينبغي فعله وما يجب أن يتجنّب، كما لو أن حياته امتدادٌ لمسؤوليته الشخصية. في إحدى السهرات، حين اختار حسين الأخت الأجل، قال لمحمود هامساً:

"أنت دايماً تفهمني من غير ما أتكلم".

- رد محمود بابتسامة باهتة:

"وأنت دايماً تختار قبل ما أتكلم".

وكانّ الجمال لا بد أن يميل إلى جانبه حيسن. لم يعترض، محمود ابتسم فقط، وواصل السير بجوار الأخرى، كمن يقبل الدور المرسوم له بلا جدال، غير أنه كان يعرف في داخله أن الصمت أحياناً أكرم من النزاع، وأن ما يؤخذ بسيف الحياء لا يصمد طويلاً.

في كل خروجة، كان حسين يقرر كل شيء:

يحجز السينما، يختار الفيلم، يحدد المطعم ونوع الطعام، وكان محمود ضيفاً في حياته، لا شريكاً فيها.

ابتسم محمود وقال بنبرة مرحة:

"أنت اخترت الفيلم... فخليّني أختار المطعم".

ضحك حسين مازحاً:

"أنا اللي بدفع، يبقى من حقي أختار".

فرد محمود مبتسمًا:

"بس أنا اللي بأكل، مش المفروض أختار الأكلة؟"  
قهقه حسين بصوت عالٍ، ثم غيّر الموضوع، كأنما أراد أن يبقى زمام الأمور في يده، دون أن يُفسد لحظة الود بينهما.  
ومنذ اليوم الأول في الكلية، أخذ حسين على عاتقه مهمة شرح الدروس لمحمود، كما اعتاد أن يفعل، لم يكن ذلك تكبرًا، بل شعورًا عميقًا بالمسؤولية.

كان حسين يخطط لمستقبله بدقة:

"تفوق، ثم تعيين في القضاء، ثم زواج من إحدى قريباته بمساعدة والده."  
ولم يتوقف عند حدّ نفسه، بل راح يخطط أيضًا لتغيير مسار محمود، إيمانًا منه بأنه لا بد أن يتفوّق هو الآخر، ليُعين معه في السلك القضائي، حتى إنه كان يفكر في أن يرشّح له ابنة أحد أقاربه المستشارين، ليضمن له الوظيفة والاستقرار.

منذ اليوم الأول في الكلية، اتخذ حسين موقع المعلم، وجعل من محمود تلميذًا له، كان يشرح بحماسٍ صادق، لكنه كثيرًا ما يتجاوز نقاطًا دقيقة، فيلتقطها محمود بعين فاحصة، ويعيد شرحها بطريقة أبسط، مضيئًا ما يُكمل المعنى دون أن يُظهر أنه يصحّح له.

"يعني تقصد كذا؟"

"آه، بالضبط!"

كانا يدركان الحقيقة ذاتها: أن محمود فهم أكثر، لكنه اختار الصمت احترامًا لتوازنٍ غير معلن بينهما.

كان يعيد ما قاله حسين بذكاء، وكأنه يشرح ما فهمه منه، ويُدرج بين كلماته ما غاب عن حسين، لا رغبةً في إظهار تميّز، بل بدافعٍ من صداقته

الخالصة، حتى لا يفوته شيء.

فهو يعرف تمامًا أن حسين لا يقبل أن يشعر بتفوق أحد عليه، فأثر أن يقدم إضافاته وكأنها امتدادٌ لشرح حسين نفسه، حفاظًا على مشاعره، وتأكيدًا لمكانته في موقع المعلم.

ظل حسين يعتبر نفسه سند محمود، ودرعه الواقي، يجلسان دائمًا جنبًا إلى جنب في المحاضرات، هو يشرح ومحمود يكتب بصمت، كأن بينهما اتفاقًا غير معلن، لا يحتاج إلى كلمات.

وذات مرة، اقترب زميل منهما وقال ضاحكًا:

"هو أنت لسه ما بطلتتش تعتمد على حسين؟  
ده انت لوحك تقدر تحللها أسرع".

ابتسم محمود بخجل، بينما حسين قطب حاجبيه، وأكمل شرحه بإصرار، كأنما يريد أن يُخرس أي شك في حاجة محمود إليه، أو في جدوى وجوده بجانبه.

وعندما ظهرت نتيجة السنة الأولى، حصل كلاهما على درجة "جيد"، وكان يفصل حسين عن "جيد جدًا" درجة واحدة فقط. نظر إلى النتيجة مبتسمًا وقال:

"واضح إن مجهودي راح في تعليمك مش في نفسي!"

ضحك محمود وردّ مازحًا:

"يعني أقدر أقول أنا السبب في نجاحك؟"

ضحك حسين بدوره، لكنه لم يرد. وفي صمته كان مزيجٌ من الفخر والقلق، كأن نجاح محمود انتزع من عباءته قليلًا.

لكن سرعان ما نفص تلك الظلال عن ذهنه، وأيقن أن جهده لم يذهب سُدى، وأن رعايته لمحمود أثمرت، وأن وجوده إلى جانبه لم يكن عبثًا.

كان يرى في نجاح محمود امتدادًا لنجاحه هو، كأنهما جسدٌ واحد، إن تقدّم أحدهما، ارتفع الآخر معه، لم يكن ينتظر شكرًا، ولا اعترافًا، بل كان يكفيه أن يرى محمود يخطو بثبات، حتى وإن كان ذلك على طريق رسمه هو. مكتفيًا بصداقة محمود، تلك التي تتوافق مع طبيعة شخصيته المنغلقة، الهادئة، التي لا تميل إلى الاختلاط الكثير.

أما محمود، فكان اجتماعيًا بطبعه، يحب الجلوس مع الآخرين، يأنس بالحديث، ويجد في الضحك متنفسًا، وإن كان ذلك يكلفه دائمًا ألمًا خفيًا، حين يواجه معاتبة حسين الساخرة، أو تعليقاته اللاذعة على من يجالسهم.

وذات يوم، جلس محمود وسط مجموعة جديدة في الكافيتريا، يضحك بصوت عالٍ، ويحكي بحرية لم يعتدها حسين منه، بينما حسين يجلس غير بعيد، يقلب صفحات كتابه دون أن يقرأ كلمة، عيناه معلقتان بصديقه، كأنهما تبحثان عن تفسير، حاول أن يرفع يده بتحية عابرة، لكن محمود كان منهمكًا في الحديث، تحيطه أصوات الزملاء وهم يشجعونه على تقديم شكوى إلى رئيس الجامعة بسبب تأخر طباعة الجزء الأخير من كتاب القانون الجنائي.

ضغط حسين على قلمه حتى انكسر بين أصابعه، ثم نهض متجهًا إلى مكتب الكلية، هناك، انفرد بعامل المكتبة، ومد يده إليه بمبلغ يفوق ثمن الكتاب أضعافًا، بكرمٍ اعتبره في داخله نوعًا من الصدقة، وكأن المال عنده وسيلة خفية لتثبيت مكانته، ناوله العامل نسختين من الكتاب، إحداهما له والأخرى لمحمود، دون أن يلحظ أحد من الزملاء شيئًا.

عاد حسين بخطوات ثابتة نحو الطاولة التي يجلس عندها محمود، ووقف بجانبه، يرمقه بنظرة عتاب صامتة، ثم مال عليه هامسًا:

"جبت لك الجزء الأخير من كتاب القانون الجنائي... هفضل قاعد لوحدي كثير؟ يلا علشان نروح".

رفع محمود حاجبيه ونظر إلى النسخة الموضوعه أمامه، وقد بدت كأنها تحمل بين طياتها رسالة خفية:

"أنا من يمنحك ما تحتاج".

ثم رفع عينيه إلى حسين، كأنما يشكره بصمت، قبل أن ترتسم على شفثيه ابتسامة صغيرة، وقال بهدوء:

"يلا بينا."

وعندما وصلا إلى السيارة، رمى حسين المفاتيح لمحمود، طالبًا منه أن يقود، متذرعًا بصداق مفاجئ، كأنه يبحث عن مبرر لتصرفه، أو عن طريقة غير مباشرة ليأخذ محمود من أصدقائه، ويعيده إلى دائرته الخاصة.

جلسا في السيارة بصمت، لا صوت سوى هدير المحرك، وكلُّ منهما غارق في أفكاره، حسين يحاول تهدئة نفسه، يقنعها بأن ما يفعله محمود ليس إلا نزوة عابرة، وأنه لا يزال ذاك الفتى الذي يحتاج إلى من يراعه.

لكنه في أعماقه كان يخشى شيئًا آخر:

"إن استمرار محمود في الجلوس مع تلك المجموعة من زملاء السوء سيُضَيِّع مستقبله، ويجرّه إلى طرق لا رجعة منها." كان يرى فيهم تهديدًا، لا لمحمود فحسب، بل لما بناه معه طوال السنوات، وكلما رأى محمود يضحك معهم، أو يتأخر عن مواعده، أو يتحدث بلغة لم يعتدها، كان الغضب يتسلل إليه، يخشى أن يزداد حتى يطرده من كنفه، ويقطع ما بينهما من عهد.

وفي المقابل، كان محمود يعيش صراعًا داخليًا لا يقلّ حدة. يتساءل إن كان ما يفعله يُعدّ خيانة لصداقة طالما كانت ملاذه، وإن كان سعيه للاستقلال

يُفهم على أنه جحود، أو تمرد غير مبرر، فهو يحب حسين، ويقدره، لكنه بدأ يرى أن صداقتهما غير متوازنة:

"حسين هو الذي يهتم ويعطي ويسند، لكنه لا يترك له مجالاً ليقدم شيئاً في المقابل، ولو بسيطاً يثبت به حضوره، يشعر أحياناً أنه يسير بجوار حسين كالتابع الضريع، لا كشريك بصير، وكل خطوة يخطوها تُقابل إما بنظرة عتاب، أو تعليق ساخر، أو صمتٍ ثقيل، ورغم أن هذا التفاوت كان يناقض طبيعته الحرة المتفحّصة، إلا أن محمود تحامل على نفسه مراراً، حرصاً على ألا يطفئ شعلة الصداقة بينهما؛ تلك الشعلة التي بدأ وكأن حسين يُصرّ على أن يمسك بزمامها وحده."

وهكذا، ظل كلُّ منهما غارقاً في أفكاره، لا يبوح، ولا يواجه، كأن الصداقة بينهما تحوّلت إلى حقل ألغام، كلُّ يخشى أن يخطو فيه خطوة خاطئة، فتنفجر المسافة إلى غير رجعة.

وبدأت الايام تُظهر ما لم يكن في الحساب، تباعدت المسافات بينهما، وشعر محمود بالاختناق من قيود حسين الحريية، فانطلق بعيداً، يبحث عن ذاته، عن استقلاله، عن طريق لا يُرسم له بيد غيره.

أما حسين، فكان ينظر إليه بحسرة، كمن يرى صديقه يضيّع مستقبله بيده، اندماج محمود مع أصدقاء جدد، وانجرافه في السياسة وحماسته لتغيير المجتمع. كما كان حال كثيرٍ من شباب الجامعة آنذاك. لم يكن عند حسين مجرد تبدل في الصحبة، بل بدأ له خنجراً عُرس في صدره، أحس بالخيانة، وتراجع إلى الوراء، متجاهلاً محمود، يراقبه من بعيد ببرودٍ مصطنع، منتظراً اللحظة التي يعود فيها إليه، نادماً، طالباً الغفران.

ظهرت نتيجة السنة الثالثة بتفوق حسين ورسوب محمود واصبح لاول مرة يسبق محمود بسنه فزادت الفجوة بينهما ظل حسين بعد تخرجه

يعمل في مكتب والده، المحامي الشهير، ثلاث سنوات كاملة، في انتظار قرار تعيينه في النيابة. واثقًا أن الطريق ممهّدًا أمامه، فاسم والده وحده يكفي لفتح الأبواب المغلقة... وفجأة... قبل إعلان نتيجة القبول بأسابيع قليلة، باغت الموت والده، تاركًا خلفه مكتبًا مليئًا بالقضايا الكبرى والموكلين أصحاب النفوذ.

وجد نفسه أمام خيار لم يتصوره يومًا:

"إما أن يتخلى عن إرث أبيه، أو يتولى هو الدقّة، اختار أن يبقى، مضطرًا لترك حلم منصة القضاء، متشبّثًا بمكتب المحاماة الذي بات مسؤوليته الوحيدة."

بمرور الايام أصبح حسين محاميًا بارعًا، فتح فروعًا لمكتبه في دولة الإمارات والكويت يتصدر بصفة خاصة قضايا التحكيم الكبرى، ويملاً اسمه الصفحات الأولى للصحف، لم يعد "ابن المحامي الشهير" بل صار هو نفسه "المحامي الشهير."

تزوّج حسين من إحدى بنات العائلات الراقية، فتاة هادئة، أنيقة، يحيطها بريق الأضواء، لكنه أحاطها بما هو أثقل من ذلك: وصايته.

كان يسبق رغباتها قبل أن تنطق بها؛ يخطط لكل تفاصيل حياتها، من ملابسها التي لا تخرج من خزانها إلا بعد أن يضع لمساته عليها.

وفي صباحٍ عابر، وهما يعبران أحد الشوارع، التفتت نحو سيارة فارهة تمر بجوارهما وقالت مبتسمة بخفة:

"يا جمالها العربية دي!"

لم يعلّق حسين، فقط نظر إليها بنظرة قصيرة وابتسم في صمت. وفي صباح اليوم التالي، كانت السيارة ذاتها تقف أمام المنزل، وقفت أمامها مدهوشة، وابتسمت في دهشة صامتة، هو لم يسأل، وهي لم تُعلّق، لكنّ

النظرات بينهما قالت كل شيء.

وفي يومٍ آخر، على مائدة الغداء، عبست قليلاً وهي تتذوّق الطعام وقالت في هدوءٍ لا يخلو من ملل:

"هو الأكل بقي طعمه كده ليه اليومين دول؟"

لم يردّ حسين، اكتفى بابتسامةٍ خفيفة، وغير الموضوع.

وفي المساء، حين دخلت المطبخ لتطلب كوبًا من العصير، فوجئت بوجهٍ جديد يقف مكان الطباخ القديم.

لم تكن قد طلبت شيئًا... فقط فكّرت، لكن في عالم حسين، ما تفكّر فيه يتحقق قبل أن تنطق به.

راودتها فكرة قضاء إجازة في بلدٍ جديد بآسيا، فهمست أثناء العشاء:

"نفسى أروح سنغافورة، نفسى أغيرّ جو".

ابتسم بثقة وقال ببساطة:

"بعد أسبوعين... جهّزي شنطك".

ظنّت أنه يمزح، لكنه لم يكن كذلك، فقد وجدت التذاكر والفندق والبرنامج اليومي بانتظارها.

وحين حملت، راودها حلمٌ خفي أن تلد في أمريكا، ورسمت خطه في عقلها لإقناعه بضرورة سفر والدتها معها، قالت له وهي تلمس بطنها برفق:

"حسين، كنت بفكر أولد في أمريكا... هناك الرعاية أحسن".

مدّ لها جواز السفر وهو يبتسم:

".متأخرة يومين في التفكير، التأشيرة جاهزة من بدري".

ثم أضاف وهو يخرج جوازًا آخر من درج مكتبه:

"وده كمان بتاع مامتِك... عارفة إنك مش هتقدري تسافري من غيرها".

خرجت من المطار، فوجدت لافتة تحمل اسمها، وسيارة فارهة في

انتظارها، نقلتهما إلى فيلا بجوار المستشفى ، وقبل موعد الولادة بأربعة أيام، كان حسين واقفًا أمامها، يحمل حقيبة تحتوي على كل مستلزمات الطفل، مرتبة بعناية، كأنها هدية من متجر الزمن، وعقب الولادة، كانت بانتظارها خادمة خاصة، مهمتها الوحيدة رعاية المولود.

سرحت بخيالها في رحلة العودة بالطائرة في ديكورات غرفة الطفل، الألعاب فوق السرير، لون الجدران الأزرق، وعندما وصلت إلى المنزل، فوجئت بأن حسين قد أعد كل شيء كما تخيلته، دخلت غرفتها لتجد كل شيء كما تخيلته:

اللون الأزرق، الألعاب الصغيرة، والموسيقى الهادئة في الخلفية.

تأملت المشهد، وابتسمت بحنينٍ غامض، وقالت لنفسها بصوتٍ خافت: "حتى أحلامي... بيوصلها قبلي".

وحين أنجبت شقيقتها طفلها الأول، استعدت لشراء هدية لها، ففوجئت بحسين يسبقها بسوارٍ من الذهب، يضعه في يدها قائلاً: "قدميه باسمك".

في تلك اللحظة، شعرت بالاختناق، كأنها لا تملك مساحة لتقول: "أنا هنا. كل شيء يُنجز قبل أن تنطق، كل فكرة تُنفذ قبل أن تكتمل في ذهنها، كل رغبة تُلبى قبل أن تُدركها". ضاقت عينها حتى كادت تنفجران، وانطلقت الكلمات مرتجفة، لكنها حادة كالسكين:

"أعطني فرصة أتنفس... أن أختار... أن أشعر أن لي وجودًا!!"

توقفت الكلمات في حلقه كأنها ارتطمت بجدار لم يتصوره، لم يخطر بباله أن رعايته، التي ظنها حبًا، يمكن أن تتحول في عينيها إلى عبء، وأن ما اعتبره أمانًا كان في حقيقتها قيدًا.

اقترب بخطوات مترددة، كمن يمشي فوق زجاج مكسور، وقال بصوت خافت، كأنه يخاطب نفسه أكثر منها:  
"كنت أظن أنني أحبك أكثر حين أسبقك إلى كل شيء... لم أفهم أنني بذلك أختزل وجودك في مجرد ردود أفعالك".

ثم أضاف، وصوته ينكسر:  
"لم أكن أريد أن أبهرك، فقط كنت أخشى أن تحتاجي شيئاً ولا تجديني".  
ارتجفت شفاتها والدموع تغمر عينيها، قبل أن تصرخ بلوعة:  
"ولو مش موجود يا حسين... ماذا أفعل؟"

وانهارت تبكي، تردد بين شهقاتها:  
"أعطني فرصة... للمشاركة.. أعبّر عن مشاعري. أغضب. أزعلك. أصلحك. يا أخي... اديني نفس واحد بس لأقول لك إني بحبك... أوحى بكركهك". ثم سكتت لحظة، ورفعت عينيها نحوه، وصوتها يرتجف لكنه يزداد وضوحاً:

"محتاجة أنعب عشان أوصل... أحتال... أدبّر... أخطط... أفرح لما توافق... أحسّ بأنوثتي".

كلماتها سقطت عليه كالصاعقة، ودارت الأرض تحت قدميه. تردّد داخله صوت واحد:  
"لا تُقدّرني".

تركها بغضبٍ صامت، وغادر المنزل، وفي لحظة خاطفة، عبر أمام خياله وجه محمود، يبتسم ابتسامة حزينة، ينظر إليه نظرة معاتبة صامتة....  
لم يعد يومها ولا في اليوم الذي تلاه، ولا في الشهور التالية، أكثر من عامٍ كامل قضاه بعيداً عنها، يتظاهر أمام الجميع بالانشغال والانتصارات،

بينما داخله جرح نرجسي عميق، يرفض الاعتراف بأنه هرب لا لأنه مظلوم، بل لأنه لم يحتمل أن يواجه حقيقة أن رعايته كانت عبثاً. ومع مرور الأيام، بدأ يكتشف أنه لم يكن يحبها حباً عادياً، بل جنوناً يُشبهه الإدمان؛ أدمن إسعادها، أدمن أن يسبقها إلى رغباتها، أدمن أن يكون هو المصدر الوحيد لطمأنينتها، وكل ما كان يقدمه لها، في الحقيقة، كان يُسعدده هو، لأنه كان يعيش من خلال رضاها.

صار يشترط طويلاً في ذكرياته معها؛ يتذكر ضحكتها وهي تُمازحه على مائدة الإفطار، ولمسة يدها الخفيفة على كتفه حين تفاجئه بكلمة شكر بسيطة، وصوتها وهي تُلقي عليه سؤالاً عابراً قبل النوم، ونظرتها التي كانت تُضيء وجهها حين تعجبت من هدية لم تتوقعها.

كان يشعر أن هذه اللحظات الصغيرة أثمن عنده من الدنيا كلها، كل صورة منها كانت تُطارده، تُحاصره، تُعيده إلى نقطة البداية: "أنه لا يستطيع العيش دونها."

اشتاق إليها كما لم يشتق يوماً، وظلّ مشغولاً بكيف تدبر أمورها بدونه، كان يعتقد اعتقاداً يقينياً أنها لن تصبر على فراقه، وأنها ستنهار في غيابه، لكن الصمت طال.

وكلما رن الهاتف، قفز قلبه من مكانه، يظنها هي... ثم يُدرك أنه كان يخدع نفسه.

\*\*\*

مرت الأيام والسنين بمحمود بعيداً عن عبادة حسين، تخرّج بعد حسين بسنتين بتقدير جيد، أصر على استكمال دراسته، فنال الماجستير، ثم تقدّم للنيابة في دفعة استثنائية وقُبل، ثم تقدّم بخطوات ثابتة، عامًا بعد عام، حتى حصل على الدكتوراه، وصار اسمه يُذكر في المحافل القضائية

والأكاديمية باحترام.

ذات صباح، استعد حسين لمرافعة تاريخية في قضية رأي عام، ستُنقل وقائعها مباشرة عبر وسائل الإعلام، ارتدى بذلته الداكنة بعناية، ودخل المحكمة بخطوات واثقة، تحيط به هالة من البريق:

"مساعدوه من حوله، والموكلون وأهالي المتهم يتسابقون لمصافحته، كأنه نجم تتقاطع عليه الأضواء من كل جانب."

وحين صاح الحاجب:

"محكمة!"

عمّ الصمت القاعة، وتقدّم حسين إلى المنصة، يتهيأ لبدء مرافعته، وما إن رفع بصره نحو القضاة حتى تجمّد فجأة... محمود... صديقه القديم، من كان يجلس بجواره على نفس المقعد في المدرسة، من كان يشرح له الدروس بصبر، هو الآن الذي يتصدّر المنصة رئيسًا للجلسة.

تصلبت شفتا حسين، وتجمدت الكلمات في حلقه، ظل صامتًا لحظات طويلة، والدهشة تسري بين الحضور:

"كيف للمحامي الذي اعتاد أن يُبهر القاعات ببلاغته أن يعجز عن النطق بكلمة؟"

كانت عيناه مسمرتين على وجه محمود، الجالس في مكانه بوقار القاضي، بينما تتزاحم في رأسه الذكريات، تتدافع كالأمواج:

"سيارته القديمة والسهرات المشتركة، الدروس الخصوصية، النصائح الأبوية التي كان يلقيها عليه، واليقين الراسخ في داخله بأن محمود لن ينجح بدونه."

لقد اعتاد أن يراه تلميذًا أبدئيًا، تابعًا، يحتاج إلى يده كي يخطو، فإذا بالحياة تنقلب على المعادلة، وتضعه اليوم في موقع المائل أمام صديقٍ كان يظنه

ضائعًا في الحياة، بعدما ألقاه هو بنفسه خارج أسوار حمايته.  
حدّق في ملامح محمود خلف المنصّة، وقار القاضي يحيط به بهالة من  
سكينة لم يعرفها فيه من قبل، للحظة، شعر أن الزمن يسخر منه، وأن  
القدر أعدّ هذا المشهد بعناية، رفع بصره إلى محمود، نظرة خاطفة تحمل  
ثقل السنين، ثم بصوت هادئ التمس التأجيل.  
فأذن له بابتسامة حانية.

جمع أوراقه، وانسحب من القاعة بخطوات محسوبة، والأنظار ما تزال  
معلّقة به.

وما إن أغلق خلفه باب القاعة، حتى انكشفت له الحقيقة العارية:  
"لم يكن يومًا مبعوث العناية الإلهية لتحقيق أحلام الآخرين، بل كان  
سجين وهم زرع في نفسه، يوهمه أن نجاح من حوله لا يكتمل إلا بظّله"  
جرفه تيار من المشاعر المتناقضة:

"دهشة مرّة، وندم ثقيل، ومرارة الاعتراف."  
أحسّ كأن جدارًا داخليًا تهدّم فجأة، ليكشف له أنه لم يكن الحامي، بل  
الحاجز؛ لم يكن المُلهم، بل السجّان الناعم، الذي يغدق الرعاية حتى  
يقيد بها حرية الآخر.

لمعت في ذهنه صورة زوجته، وهي تصرخ:  
"أعطني فرصة أتّنقّس أن أختار... أن أشعر أن لي وجودًا!" حينها لم يفهم،  
ظنّها انفعالًا عابرًا. أما الآن، فقد أدرك أن يده التي أغدقت، هي ذاتها التي  
صادرت حقها في التنفس، تمامًا كما حاول أن يصادر حق محمود في أن  
يشق طريقه وحده.

في قلبه ارتجف سؤال لم يجروا أن يواجهه من قبل:  
هل كان يخشى على محمود فعلاً؟

أم كان يخشى أن ينجح محمود بدونه؟

ذلك اليقين الذي لازمه طويلاً، أنه "اليد التي تهب الحياة" تحوّل الآن إلى سخرية مُبينة، ها هو محمود، شامخٌ في منصّة القضاء، لا ليكون تابعاً، بل قاضيًا يحكم بالعدل، بينما حسين نفسه عاجزٌ عن النطق، كأنه هو المائل في قفص الاتهام. في تلك اللحظة، شعر حسين أن الحكمة تتجلّى أمامه، قاسية وصافية:

"النجاح لا يحتاج إلى وصاية، والحياة لا تمنح أحدًا حق الادعاء بأنه رسول القدر في حياة الآخرين".

أغض عينيه لحظة، ثم فتحهما على قرار مختلف: أن يتنازل، ولو لمرة واحدة، عن نرجسيته، أن يطرق بابها لا كمن يمنح، بل كمن يطلب. ارتجفت يده وأمسك الهاتف، لبث ساكنًا لحظة، ثم ابتسم ابتسامة مُرّة وهو يطلب رقمها:  
"أنا قادم".

قالها مختصرًا، كأنها أول جملة صادقة ينطقها منذ سنين، ثم التفت إلى سائقه وأمره بصوت ثابت:

"إلى بيت زوجتي".

ارتمت بين أحضانها، فابتسم وضمها بين ذراعيه، وثبّت عينيه في عينيها، يلمع منهما حبٌّ صادق، تتخلله ومضة شفقة.....حائرة!

## بين الصف الخامس والسماء

جبر الخواطر

منذ طفولته، كان سامح يمسك بطرف عباءة والده كل يوم جمعة، يسير بجواره نحو المسجد بخطواتٍ صغيرة متقطعة، يشعر بالفخر لأنه يُصلي مع أبيه بين الرجال.

لم يكن يفهم معنى الخطبة أو الدعاء، ولكنه كان يعرف أن بعد الصلاة سيحصل على قطعة حلوى من يد أبيه، علامة رضا، وابتسامة تُشعره بأنه في الطريق الصحيح.

ذات صباح، وهما يسيران بين المصلين، سأله سامح بصوته الطفولي:

"ليه يا بابا ما بنروحش بدري علشان نقعد في الصف الأول؟ ماما بتقول

اللي يروح الأول كأنه تبعر بجمل"

ابتسم الأب، ومال برأسه نحوه كمن يلقنه درسًا للحياة لا للعبادة فقط، وقال:

"يا ابني، اللي يروح الأول مش اللي يقعد في الصف الأول".

ثم ربّت على رأسه وأكمل:

"أنا عمري ما روّحت الجامع بدري عشان أحجز مكان في الصف الأول. أن

علّمت نفسي أقيس قُرْبِي من ربنا مش بالمكان اللي أقف فيه، اللي يقف في

الصف الأول مش دايماً أقرب من اللي بيقف في الصف الأخير...".

كبر سامح، وبدأ يرى أن وجه أبيه لم يعد كما كان؛ أحياناً منشرحاً، وأحياناً

غارقاً في شرودٍ ثقيل، سمع الجيران يتحدثون عن الديون، وعن أقارب

تنكروا له بعد أن أعانهم سنوات، ومع ذلك، كان الأب لا يتوقف عن

الذهاب إلى المسجد، ولا عن قوله الثابت:

"الصلاة عماد الدين يا سامح، لا تتركها أبدًا."

ثم رحل الأب فجأة، تاركًا وراءه ديونًا لا ترحم.

باع سامح متجر أبيه بثمنٍ بخس ليسدد ما استطاع، وواصل العمل ليلاً ونهارًا بلا شفقةٍ من أحد، ومع زخم الحياة وشظف العيشة، انقطع عن الصلاة دون أن يعرف السبب. ربما لأن غياب الأب تركه عاري القلب، أو لأن الحياة صارت تجبره على الركض دون توقف.

وحين التحق بالخدمة العسكرية، وجد نفسه في عالمٍ آخر؛ بعيد تمامًا عن الحياة المدنية التي تعود عليها. الصول عبد الحميد رمزٌ للقسوة النظامية، يزور دائمًا:

"الجيش مصنع الرجال"

وذات يومٍ قائظ، كُفّت سريته ببناء مبيتٍ للعساكر الجدد، حمل الطوب والإسمنت سيرًا على الأقدام، وصوت الصول عبد الحميد يهتف خلفه:

"اجمدوا يا رجال، الي قبلكم بنوه لكم، وأنتم تبنوا لي بعدكم"

وفي ظهيرةٍ خانقة، بينما يختلط العرق بالتراب على وجهه، صدع أذان الظهر من مسجدٍ قريب... توقف، رفع رأسه إلى السماء، وقال في نفسه:

"كيف أسمع أوامر البشر، ولا أسمع نداء الله؟"

ترك ما بيده، ومشى نحو المسجد بجوار الصول عبد الحميد.

التفت له وسأله:

"رايح فين يا دكتور؟"

أشار سامح إلى السماء وقال بهدوء:

"رايح له".

منذ ذلك اليوم، لم يترك صلاة، وبعد خروجه من الجيش، أكمل دراسته،

ونال الماجستير والدكتوراه، وافتتح عيادته الخاصة. واضعًا لنفسه دستورًا قاسيًا:

"لا مجاملات، لا ديون، لا صدقات لن اكرر ما فعله ابي".  
مرت السنوات، تزوج، أنجب، افتتح عيادة، وذاع صيته. ومع ازدياد الزحام، لم يجد حلًا سوى رفع سعر الكشف، وكان يقول بثقة باردة "بيتي وأولادي أولى، اللي يحتاجه البيت يحرم على الجامع".  
ورغم مواظبته على الصلاة منذ ذلك اليوم، إلا أنه كان دائمًا يجد نفسه في الصفوف الخلفية، وكان حاجزًا خفيًا يفصله عن الصفوف الأولى، عن القرب الحقيقي  
نظر إليه ذات جمعة ابنه يحيى وقال:

. "احنا على طول بنصلي في الآخر، كل صحابي جوا في الجامع".  
حينها تذكر ما كان بالأمس رن صوت أبيه في أذنه وكأنه بالأمس القريب:  
"اللي يقف في الصف الأول بدري مش دايمًا أقرب من اللي بيقف في الآخر."

ولكنه لم يستطع أن يكررها على مسامع ابنه، فقد شعر أنه ليس كأبيه في كرمه، وكان حاجزًا خفيًا يفصله عن ترديد الكلمات.  
في اليوم التالي، علّق لافتة صغيرة على باب عيادته كتجربة لا أكثر:  
"الكشف مجانًا يوم الثلاثاء"

وفي الجمعة التالية، وجد نفسه داخل المسجد، في الصف السابع، بعد أن كان يصلي خارجه.  
عاد إلى العيادة وغيّر اللافتة:

"الكشف مجانًا يومي الثلاثاء والأربعاء".  
لكن الصف ظل كما هو — السابع.

رفع رأسه نحو السماء وقال في خشوعٍ متهدّج:  
"اللهم ما قرّبي إليك".

في اليوم الخميس، ازدحمت العيادة بالفقراء، دون أن يفكر، قال  
للممرضة:

"خلي الفقراء يدخلوا الأول".

ترددت وقالت:

"بس كده الناس اللي معاهم فلوس هيمشوا!"

-ردّ بابتسامة خافتة:

"الصالحات أبقى... اللهم ما قرّبي إليك".

لم ينصرف أحد، بل ازداد الزحام، لكن الصف ظل كما هو — السابع!

مرت السنوات، شاب رأسه، وهدأت قسوته، وفي أحد الأيام، دخلت عليه  
الممرضة وقالت بخجل:

"بنتي جالها عريس محترم يا دكتور، وإحنا ظروفنا صعبة، ولو ممكن  
سلفه؟"

ابتسم وقال:

"اعتبريها بنتي".

ساعدتها في زواج ابنتها اليتيمة من قلبه، بلا انتظار شكرٍ ولا مقابل، وحضر  
الزفاف بنفسه، يجلس بين النساء والرجال في حيِّ شعبي صغير، يأكل  
الحلوى ويضحك كأنه واحدٌ منهم. حين صافح الأم والابنة في نهاية الليلة،  
شعر بطمأنينةٍ غريبة لم يذقها منذ سنين، كأن أحدًا أعاد ترتيب قلبه في  
صدره.

وفي الجمعة التالية، دخل المسجد كعادته، دون انتظارٍ ولا حساب، لم  
يلتفت إلا حين أقيمت الصلاة، فرفع رأسه، وإذا به في الصف الخامس.

لم يبتسم ابتسامة النصر، بل ابتسامة خشوعٍ تشبه دمعاً لم تسقط بعد،  
ركع وهو يتمتم بصوتٍ خافتٍ يكاد لا يُسمع:

"الصفوف لا تُقرب بالأقدام... بل بجبر الخواطر".

وحين سجد، أحسَّ أن الأرض لم تعد صلبة تحت جبهته، بل كأنها بحرٌ  
من نورٍ يتسع له.

أغمض عينيه لحظة وقال في سره:

"ربما لم أصل الصف الأول بعد، لكني — ولأول مرة — أشعر أنني  
قريب".

اهتز جسده برفق بيد حفيده أيمن تشد يده:

"يلا يا جدي، علشان نشترى الحلوى".

احتضنه، قبله، ونهض معه مبتسماً، وخرج من المسجد بعد الصلاة،  
والهواء بارداً منعش، يحمل رائحة مطرٍ خفيف.

أغمض عينيه لحظة وهمس:

"الله يرحمك يا ولدي".

تمت

## ظل حنين منصف العمس

جلس على الكرسي الهزاز يتحرك ببطء، كأنه يحاول تهدئة نارٍ تشتعل في صدره. لم يكن الحزن غريبًا عليه، لكنه هذه المرة بدا أثقل من المعتاد. شعر أن الحياة كانت تمدّ له يدها، تمنحه فرصة أخيرة، لكنه تركها بترددٍ موجه، أدار ظهره لها ودفنها.

وراح يراوده إحساس مُرّ بأن أيامه لم تعد تُنصت إليه... وأنه بات غريبًا حتى عن نفسه، ليس لأن قلبه خان، بل لأنه، لم يحارب كفاية ليستحق الخلاص.

أغلق هاتفه شهيرًا كاملاً، الصمت صار رسالته الوحيدة للعالم وعندما التقطه أخيرًا، فتح الشاشة... ارتج الهاتف برسائل متراكمة، مسحها جميعًا، ثم جعله صامتًا، وألقاه بعيدًا.

مرّ شريط ذكرياته أمام عينيه... ولم يكن اللقاء الأول في الجامعة، بل تعود الحكاية إلى أيام المدرسة الثانوية.

كانوا أربعة، كأضلاع مربع لا يكتمل إلا بهم جميعًا:

مروان، ذلك الطالب النابغ، يحمل أحلامًا أكبر من عمره، يُخفي مشاعره في خزائن مغلقة؛ كل حلٍم كان يلمع داخله لحظة... ثم يخبو ببطء، كشمعةٍ تأكل نفسها في هدوء.

ويوسف، رفيقه الأقرب، ساخرٌ بذكاء، يلتقط الحزن من الوجوه كما يلتقط القارئ الماهر المعنى المختبئ بين السطور.

مي، الفتاة التي دخلت عالمهم كنسمة دافئة، تجلس إلى جوار مروان طوال سنين الدراسة، كأن المكان اختارها لا هي اختارته.

وحسن، الشاب الناضج، الأكبر بعامين، الذي صار لاحقًا حبيب ميّ، وسابقهم جميعًا إلى الجامعة.

كانت ميّ تجلس إلى جوار مروان كل صباح، تسأله وتضحك على تعليقاته الجادة، وتستند إلى كتفه حين تتعب من ضغوط الدراسة. جسده القوي كان كالسور الذي يحميها من نظرات المتطفلين، لم يجرؤ أحد أن يضايقها، لا بكلمة ولا بإيماءة، طالما هو بجوارها.

يبتسم لها دومًا... تلك الابتسامة الهادئة التي تخفي عاصفة، وفي صدره شيء ظلّ يتكوّر عامًا بعد عام، حتى صار وجعًا لا يُنسى.

في أحد الأيام، وهما يغادران المدرسة تحت مطر خفيف، قال يوسف بصوت خافت:

"مروان... أنت بتضحك لها... بس عينيك مش بتضحك".

- ظل مروان صامتًا للحظة، ثم أغمض عينيه، كأنه يود أن يهرب من الواقع، وقال:

"أصلها بتحب حسن".

- توقف يوسف، ونظر إليه بقلق، ثم قال بصوت مرتجف:

"وأنت بتحبها".

- تنفس بعمق، وأمسك بيده كأنما يحاول تهدئة نفسه أولاً:

"أنا مش هبوط صداقتي بيه..."

ولا هخليها تحس بحاجة مش في بالها".

- رد يوسف وهو يرفع حاجبيه:

"هي بتستريحلك أكثر من حسن".

- رد ببطء، وكلماته تخرج بصعوبة من بين شفتيه:

"بس بتحب حسن".

- ضحك يوسف ساخراً وقال:

"الحب من طرف واحد... زي الرمل اللي تحاول تمسكه، ويهرب من بين يدك."

بعد عامين، التحقوا جميعاً بالجامعة نفسها،هندسة طبية وظلت ميّ تفضّل الجلوس بجوار مروان، تذاكر معه، وتستأذنه في قراراتها. أما حسن، الواثق، فلم يعترض يوماً لثقتة في مروان، كما يثق بنفسه، لكن يوسف ظل يرى ما لا يُقال.

قطع شروده ارتجاج، الهاتف.

رسالة من يوسف، من القاهرة.

تردد قبل أن يفتحها... رافضاً أن يقتحم أحد حزنه."

"حين لمح قرأ الرسالة، جاءت كصوت خافت من يوسف :  
"أنا كنت ساكت.

مش علشان مش حاسس بيك

ولا علشان ما كانش عندي كلام

بس ساعات السكات بيبقى أصدق من أي جملة...

خصوصاً لما تبقى عارف إن الكلام مش هيلمّ اللي اتكسر

ولا هيشيل عنك اللي اتربّي في صدرك بقاله سنين."

توقف ولم يكمل ... الكلمات أثقل من أن تُحتمل.

أغلق الرسالة، وألقى الهاتف بعيداً.

\*\*\*

عاد بشريط الذكريات ببطء لحظة خروجه من البلد، لم يكن جرح حب، ولا خوف وطن...بل غصّة لا اسم لها، كبذرة ظلّت مدفونة تحت جلد القلب، تنبت كلما هبّ صقيع الغربة.

سافر إلى الشمال بمنحة دراسية، وهناك، في برد السويد، بنى لنفسه حياة، لكنه ظلّ يسكنها كضيف، نسي أسماء الشوارع، وضحكات الطفولة، ومي... أو ظن أنه نسيها ينجح في كل شيء... ما عدا أن يفرح.

تذكر لحظة تحليق الطائرة في السماء والضوء الخافت ينسحب من تحت جناحيها، الناس من حوله نائمون... أما هو، فكان في مكانٍ آخر، في قلبه شيء مكسور... لم يعرف له اسمًا، لم يكن الجرح جرح حب، فمي، لم تعده بشيء.

ولم يكن الخوف خوف وطن، فالوطن لم يطرده، ولم يحتضنه. بل كانت غصة غير مفهومة... كأن بذرة عميقة عُرسَت تحت جلده، لا تُرى، لكنها تنبض كلما لامسها الحنين .

ربما... لو لم يكن حسن في الصورة، لتمسك بمي.

ولو فتحت مي له باب قلبها، لتمسك بمصر.

وربما لو لم يكن الوطن صامتًا، لوجد فيه ما يكفي للبقاء.

لكن الاثنين كانا هناك...

الرجل الذي يسبقك دائمًا بخطوة.

والبلد التي لا تنتبه إلا بعد الرحيل.

فمضى، لا هاربًا... ولا عائدًا إلى شيء، مضى، كمن يخرج من نفسه... لا من بلده.

- في أولى لياليه في سكن الجامعة، اكتشف شيئًا غريبًا في المطبخ المشترك، على رفٍ صغير بجوار الثلاجة، وجد صندوقًا خشبيًا باهت اللون، كتب عليه بخطٍ ناعم:

Take what you need.

Leave what you don't.

Or just leave a note."

"خذ ما يخفّف عنك..."

واترك ما لم يعد يعينيك...

أو فقط، دع خلفك كلمة... تشبهك."

لم يفهم القصد تمامًا.

نظر داخله، فوجد جوربًا صوفيًا ملفوفًا بعناية، وقطعة شوكولاتة داكنة، ومغلفًا صغيرًا كتب عليه:

"Don't let the cold convince you that you're alone."

"قد يكون البرد قاسيًا... لكن ذلك لا يعني أنك بلا رفيق."

لا توقع.

لا اسم.

"شعر، رغم كل المسافات التي أبعدته، أن الدفء لا يزال ممكنًا... ولو في رسالة بلا اسم."

أخذ الجورب، ووضع مكانه علبة شاي بالنعناع.

لم يفكر كثيرًا، فقط أراد أن يترك أثرًا طيبًا.

في اليوم التالي، وجد ورقة جديدة، بخط عربي مكسّر:

"شكرا على الشاي..."

أنا بحب النعناع... من زمان.

إنت عربي؟

التوقيع "إيما"

قرأ الاسم مرتين.

ثم ابتسم، ابتسامة صغيرة. في اليوم التالي، تركت على طاولته كوبًا من

القهوة... وسورة "الضحى" بخط يدها المرتبك.

في تلك الليالي، لم يفارقه سؤال واحد:

"من صاحبة الخط العربي المرتبك في الصندوق؟"

ظلّ يطارد الاحتمالات كأنها أطياف ثلاثية تتناوب على عقله.

الإسبانية... بعينها السوداوين وابتسامتها المضئئة، كانت الأقرب إلى روح

الشرق... أم الإنجليزية... المرحّة، الصاخبة بعينها الخضراوين وضحكتها

التي تملأ الممرات، هل يمكن أن تخط تلك الكلمات المرتبكة دون حرج.

أما السويدية... الأكثر غموضًا، الصامته كأنها لا تنتمي إلى صخب السكن

الجامعي، شعرها الأشقر ينساب على كتفيها كخيوط ثلجية، وكان قلبه -

رغم منطقه - يتمنى أن تكون هي.

ظل هذا الصراع ينهش ذهنه، يزيده ترقبًا كلما مرّ بالصندوق.

حتى جاء المساء، وبينما كان يغلي الماء لتحضير قهوته المعتادة في المطبخ

المشترك، سمع وقع خطوات خفيفة تتسلل نحوه.

التفت... فرأى فتاة بشعرٍ بني طويل ينسدل كالحرير، ترتدى كززة رمادية

واسعة، وجوارب صوفية زرقاء مألوفة. وقفت عند الباب، تحمل كتابًا

صغيرًا وكوبًا خزفيًا عليه رسمة لوردة ذابلة. رفعت عينيها بتردد، وقالت

بصوت خافت فيه نبرة خجل:

"أنت اللي حطيت الشاي؟"

ابتسم، وأومأ برأسه.

-اقتربت بخطوات حذرة، ثم قالت:

"أنا... إيما... كنت حابة أقول شكرًا، بس ما كنت متأكدة إذا لازم أكتب ولا

أتكلم".

-ضحك بخفة، وأشار إلى الصندوق الخشبي:

"الصندوق بيشرح على الكلام... بس الورق له سحره برضو".

- جلست على طرف الطاولة، ووضعت امامها نسخة قديمة من كتاب "الأيام" لطله حسين، وعليها ملاحظات صغيرة بالإنجليزية والسويدية، ثم اشارت إلى الكتاب وقالت:

"بحاول أقرأ بالعربي... بس صعب شوي".

- رد وهو يصب القهوة في كوبه:

"بس واضح إنك بتحاولي... وسورة الضحى كانت مكتوبة بإحساس، مش بس حروف".

- احمرّ وجهها قليلاً، ثم قالت وهي تضحك:

"كنت خايفة ما تفهمها... أو تضحك".

هز رأسه، وقال بهدوء:

"فهمتها طبعاً".

في تلك اللحظة، لم يكن المطبخ مجرد مساحة مشتركة بين أربع غرف، بل صار نقطة التقاء بين لغتين، وثقافتين، وفضولين مختلفين.... ومنذ ذلك اليوم، لم يعد لقاؤهما مجرد تبادل أوراق أو أفكار حول المشروع الدراسي، بل بدا وكأن شرارة صغيرة تستيقظ بينهما. كانت إيما تحمل جمالاً سويدياً باهراً، لا يصرخ ولا يتباهى، بل يتسلل بهدوء كضوء شتوي ناعم، بشرتها كأنها من نسيج الثلج، وعيناها بلون البحر حين يهدأ، وشعرها البني الناعم ينسدل كقصيدة لا تحتاج إلى ترجمة.

لكن ما شدّه لم يكن مظهرها وحده، بل ذلك التناقض الساحر بين ملامحها الهادئة وفضولها العميق، بين رقتها الخارجية وجراتها في طرح الأسئلة. رأى في عينيها شيئاً أصدق من كل تبرير.... كانت إيما تسأل كثيراً، لا لتجادل، بل لتفهم.

"ليه الصلاة خمس مرات؟ مش كثير؟"

فيجيئها مروان بابتسامة هادئة:

"هي مش كثير لما تبقى لحظة لقاء، مش مجرد واجب."

ثم تسأله: "يعني الست ما تشتغلش؟ لازم تقعد في البيت؟"

فيشرح لها أن العمل ليس ممنوعاً، لكنه مشروط بالضرورة والكرامة، وأن البيت في الإسلام ليس سجناً، بل مملكة تُبنى على الطمأنينة.

تتوقف قليلاً، ثم تقول:

"بس تعدد الزوجات؟ ده صعب أوي!"

- تنهد، قائلاً:

"مش أمر، دي رخصة مشروطة بالعدل..."

والعدل مش سهل."

- تتأمل إيما كلامه، ثم تحدّق فيه وتقول بصوت ضاحك:

"بس أنا مش قادرة أتخيل نفسي زوجة تانية... أو تالته... أو حتى أولى وسط أخريات."

- يبتسم مروان، ويجيئها بلطف:

"الدين بيحط قواعد، بس الرحمة هي اللي بتخليها تعيش."

- حدّقت إيما في الفراغ لحظات، ثم ثبتت عينيها عليه وقالت:

"بس في التعدد جوانب مشرقه... بيقلل العنوسة، ويفتح باب لناس كثير كانت حياتهم واقفة."

ثم أضافت، وكأنها تفكر بصوت مرتفع:

"ولو كان المبدأ في الإسلام إن الست تقعد في بيتها، وما تشتغلش إلا عند الضرورة، يبقى الزوج هو الحل الأمثل."

ثم ابتسمت بخفة، واستطردت:

"يعني المرأة المسلمة تقعد في بيتها، والرجل يصرف، وملتزم بكل حاجة..."

كانها ملكة متوّجة، مش مجرد شريكة".

- نظر إليها مروان بإعجاب، ليس فقط لأنها فهمت، بل لأنها بدأت ترى ما وراء الأحكام... ترى المنطق، والرحمة، والكرامة.

وفي كل سؤال، كانت تقترب أكثر، لا من مروان وحده، بل من الإسلام ذاته؛ ذلك النور الذي وجدته متوافقًا مع فطرتها السليمة. تقرأ، تسأل، تبكي أحيانًا، وتصمت طويلًا.

ومع مرور الأيام، تداخلت أفكارهما وقلوبهما؛ تجتهد "إيما" في إعداد بعض الأكلات المصرية، وتعتني بمروان، تساعد في دراسته، حتى شعر معها وكأنها تعلّمه الحياة لا المواد الدراسية، اعتاد كلُّ منهما على الآخر، وصارت هي البلمس الذي يخفّف مرارة غربته، لكن قريبها لم يمنع "مي" من أن تزوره في أحلامه.

أحيانًا كان ينتابه إحساس بأن "إيما" تدرك ما في داخله تجاه "مي"، ثم سرعان ما ينفذ عن عقله تلك التأويلات، كمن يخشى أن يُفسد اللحظة. فمن الغد تبدأ إجازة الترم، ويجب مكافأة إيما على إعدادها الأكلات المصرية التي أحبها، تلك الليلة، استغرق في نوم عميق، فإذا بإيما لأول مرة تزوره في أحلامه، لم يرَ ملامحها بوضوح، لكنه شعر بدفء ابتسامتها، وسمع صوتًا يشبه صوتها يهمس بشيءٍ لم يستطع أن يفهمه، استيقظ وعلى وجهه أثر ذلك الحلم، بين راحة غريبة وقلق لا يُسمّى.

طرق باب غرفتها مرارًا دون رد، فعلم من المرافقين في المنزل أنها خرجت، انتظر عودتها حتى أسدل الليل ستاره، والقلق ينهش قلبه... لم يستطع أن يصبر أكثر؛ أطلق قدميه يبحث عنها في شوارع ستوكهولم، كطفلٍ يبحث عن أمه في الزحام.

فجأةً راودته فكرة؛ عاد مسرعًا إلى المنزل، اندفع إلى غرفتها، وجد ورقة

قصيرة، لم يعرف إن كانت موجهة له أم لغيره، كتبت فيها:  
"أنا في طريقي لاتخاذ أهم قرار في حياتي، وأحتاج إلى بعض العزلة."  
تراجع خطوتين إلى الوراء، وكأن الأرض اختلت تحت قدميه.  
أغلق الباب خلفه ببطء، ووقف في الممر، يحدّق في الورقة بيدٍ ترتجف.  
والحيرة مرسومة على ملامحه بوضوح—عينان شاردتان تبحثان عن  
معنى، وجبين ينعقد، ونفّس يعلو ويهبط بلا انتظام.  
مدّ يده إلى هاتفه للمرة العاشرة، ضغط زر الاتصال... انتظر...  
ثم جاءه الصوت القاسي الذي اعتاد سماعه منذ رحيلها:  
"الهاتف مغلق أو غير متاح حاليًا."

\*\*\*

في غياب "إيما"، انغمس مروان في عمله أكثر مما تحتمله طاقة طالبٍ  
مبتعث؛ فبعد محاضراته كان يقضي ساعاتٍ إضافية في مصنع الأطراف  
الصناعية ضمن برنامج التدريب، يبقى حتى بعد انتهاء مناوبته، يراجع  
التصميمات ويختبر الخامات ويُعدّل برامج الحركة، كأنه يطارد فراغًا لا  
يريد الاعتراف به.

وقد رآه المشرفون — رغم صغر سنه — شابًا واعدًا يعمل بروح مهندسٍ  
ناضج. لكنه كان يعرف في داخله أن هذا الانغماس كله مجرد محاولة  
للهرب من فراغ أكبر، انتظار طويل لشيء لا يعترف به حتى أمام نفسه:  
عودة "إيما."

وفي صباحٍ عادي تمامًا، لا يعدّ بشيء، ولا يحمل أي إشارة مختلفة... فتح  
مروان باب المطبخ المشترك في السكن، فإذا هي هناك. جالسة بهدوء  
كأنها لم تغب يومًا، توقفت يدها عن الحركة، ظل واقفًا عند الباب  
مذهولًا، عيناه تلمعان بدهشة لم يستطع إخفاءها، ارتسمت ابتسامة

صغيرة على شفتيه، ابتسامة مرتبكة تختلط فيها المفاجأة بدموع الفرح المكبوتة، لم يسألها أين كانت أو لماذا غابت، كان يكفيه أنها عادت.

اقتربت منه وبهدوء مدهش همست وهي تشاور على نفسها:

"فاطمة...تستطيع منادتي به من الان بعد اسلامي."

ثم ابتسمت واكملت من وراء دموعها:

" مش علشانك، علشاني".

ضحكت بعدها وأضافت:

"بس أنت هتتحاسب على اللي عملته فيا."

ضحك، واغرورقت عيناه بدموع الفرح لها .

وشعر بأن كلماتها كانت أكثر من اعتراف... كانت دعوة مبطننة، رسالة خفية تقول:

"أنا مستعدة أن أشاركك الطريق".

ظل أياَّمًا يتردّد، يخشى أن يفسد النور بالتسرع.

ثم ذات مساء، جلس أمامها في المطبخ المشترك، صامتًا للحظات، قبل أن يرفع عينيه ويقول بصوت خافت لكنه ثابت:

"إيما... هل تقبلين أن نكمل هذا الطريق معًا، زوجين؟"

لم تجبه فورًا. نظرت إليه طويلًا، ثم ابتسمت ابتسامة وادعة، وقالت:

"كنت مستنية اللحظة دي... من يوم ما كتبتلك سورة الضحى".

بعد أشهر قليلة، تم الزواج. لا ضجة. لا زفاف. اكتفيا بطمأنينة صافية، وبقين صامت أغنى من كل الطقوس، وأصدق من كل المظاهر.

\*\*\*

ما لم يتوقعه مروان... هو ما حدث بعد الزواج..... إيما، لم تتوقف عند الإسلام كمجرد انتماء، بل غاصت فيه كرحلة، كهوية جديدة وشكل آخر

للنجاة.

لم تكتفِ إيما بارتداء الحجاب احترامًا لمجتمعه أو دينه كما توقع، بل ارتدت الخمار طواعيةً، كمن يرتدي قناعاً عن قناعة، لا مجاملة ولا مجارة.

حفظت القرآن، سورة بعد سورة، وفي الليالي الطويلة، حين ينام الجميع، كانت تجلس بمفردها، تقلب صفحات مصحفها، تراجع أجزاءها بصوت منخفض، كأنها تهمس لله وحده.

حفظت القرآن كاملاً، وتعلّمت العديد من الأحاديث، وتبحّرت في كتب الفقه، راحت تسأل الشيوخ بأسئلة دقيقة، بلغة عربية تعلّمتها خصيصاً كي لا تضطر للترجمة، وكأنها أرادت أن تزيل كل حواجز الفهم، حتى تلك التي تصنعها اللغة.

علّمت أطفالها الحروف كما كانت تتعلّمها، حرفاً حرفاً.

حفظتهم "الفاتحة" وجزء "عم" قبل أن يتقنوا العدّ بالسويدية، وعلمتهم الوضوء والركوع والسجود. صوتها وهي تتلو آيات القرآن يتردد في أرجاء المنزل، يتداخل مع صوت المذياع الذي لا يكفّ عن بثّ التلاوات، صار البيت كله محرّاباً صغيراً، الرديو في المطبخ، والمذياع في غرفة النوم، والآيات تنتقل بين الجدران، تصدع بهدوء، وتُرّي القلوب وتُروى الروح.

أدخلت أطفالها في صوم رمضان، وكبيرهم لم يتجاوز التاسعة، يصومون أكثر من عشرين ساعة كما تصوم هي، دون أن تلجأ إلى فتوى مجمع الفقه الإسلامي القائلة بجواز الإفطار وفقاً لأقرب بلد معتدل التوقيت.

كانت تقول بثقة وهدوء:

"أنا أعيش هنا، والله يعلم مكاننا."

أما مروان، فكان يفطر على توقيت اقرب بلد يؤذن المغرب

ثم جاء القرار الذي فاجأه بتصميم لا يقبل انصاف الحلول :  
"لا بد من مغادرة السويد للعيش في مصر أو السعودية أو تركيا".

- هز رأسه في دهشة، وقال بهدوء :  
"ليه؟"

- أجابت بلهجة جادة، وعيناها لا تتركان وجهه:  
"علشان المدرسة... مش قادرة أقبل إن أولادنا يسمعوا حاجات ضد اللي  
بنزرعه جواهرهم".

- انتبه فجأة لما قالت، وتردد قليلاً، فأكملت، بنبرة أعمق:  
"أنا مش ضد الحرية، ولا ضد إن الناس تختار حياتها، لكن اللي بيحصل  
هنا مش مجرد تعليم... ده توجيه".

ثم نظرت إليه نظرة عميقة، وقالت بنبرة جادة:  
"النهاردة، الطفل عنده ٦ سنين، بيدرس إن الجنس مش حاجة بيولد  
بيها، وإنه ممكن يقرر بعد شوية يبقى ولد أو بنت، وإن العلاقات المثلية  
شيء طبيعي تمامًا، وإن أي كلام غير كده اسمه تمييز... وجريمة".

ظل صتمتًا يلتقط أنفاسه، وكأن الكلمات تأبى الخروج  
- أردفت بحزن:

"أنا أسلمت عن قناعة، مش وراثة... واخترت الإسلام بمنطقي، بإرادتي،  
بس أنا شايفة إن أولادنا بيتسحبوا من تحت إيدينا بهدوء... بيتعلموا إن  
الصح نسبي، وإن الدين مجرد رأي خاص، وإنهم يثقوا في المدرسة أكثر  
منّا".

- لم يقل شيئاً، اكتفى بابتسامة ضيقة، كأنها تحمل الكثير  
فواصلت:

"أنا مش قادرة أعيش كل يوم خايفة إن بنتي ترجع تقول لي: ماما، المدرسة

قالت لي إنني ممكن أكون ولد لو أنا مش مرتاحة ببنوتي. أو ابني يرجع يقول لي:

ليه القرآن بيقول إن الشذوذ حرام، والمدرس قال لي إن كل الناس أحرار يحبوا اللي يحبوه؟"

ثم أخفضت صوتها، كأنها تخشى أن يسمعها أحد من الجدران:

"أنا مش عايزة أعيش في حرب صامتة مع نظام تعليمي بيشككني في ديني قدام عيالي... مش قادرة أقبل إن أولادنا يسمعوا حاجات ضد اللي بنزرعه جواهرهم، مش عايزة أولادي يحبوني بس لما أكبر، أنا عايزاهم يفهموا أنا كنت بحميهم."

-نزلت كلماتها على رأسه كالصاعقة.

صمت. لم يجد ما يردّ به.

تأملها طويلاً... لم يكن في قلبه رفض.

كان في نفسه شيء يشبه الحزن، يشبه الفقد، يشبه التخلّي عن حلم لم يكتمل، يشعر أنه يسير خلفها، لا أمامها.

وافق دون نقاش.

وفي ظرف عدة ايام، سافرت إيما مع الأولاد إلى تركيا. مدينة صغيرة في ضواحي إسطنبول، بيتها يطلّ على مسجد قديم، ومكتبة القرآن فيه لا تُغلق أبوابها.

مروان لم يستطع ترك عمله في السويد، لكنه صار يتردد كل ثلاثة أشهر تقريباً، يحمل حقيبة صغيرة، ويغرق أيام قليلة في دفء البيت والأذان... وصوت ابنه الصغير وهو يقرأ سورة الملك بصوت مكسّر.

لم تكن الحياة مثالية، لكنها كانت حقيقية.

أما مصر... فكانت مثل شرفة قديمة في ذاكرته.

وفي كل زيارة إلى تركيا، كان يعرّج على القاهرة -زيارة خاطفة، صامتة، يتحسس اخبار اصدقائه من يوسف.

في المرة الأخيرة، قال له يوسف دون مقدّمات:  
"على فكرة، مي اتطلقت".

رفع حاجبيه بدهشة، بدت على وجهه علامات حيرة عميقة وأقرب منه  
بنظرة متسائلة :

"امتي؟..ازى ده حصل؟"

رد ببساطة :

"النصيب كده"

- اطرق برأسه قليلاً، واردف وكلماته تخرج من بين شفتيه بصعوبة:

" بسبب الخلفه؟ "

- هز يوسف رأسه بلا اكتراث:

"ربما"

نظر اليه مروان باستغراب كمن لم يستوعب ما قيل

في تلك الليلة، لم يذهب مباشرة إلى الفندق.

ظلّ يتجوّل في الشوارع القديمة، توقّف أمام مقهى كانا يجلسان فيه أيام  
الجامعة، ثم أمام سور الكلية، ثم أمام بيتها القديم، لم يكن يعرف على

وجه التحديد لماذا جاء.

هل ليواسيها؟

هل ليقول لها إنه ما زال يراها كما كانت؟

هل ليطلب منها أن تفتح له قلبها من جديد؟

ربما شعر أنها تحتاجه، كما كانت دائماً.

وربما هو من يحتاجها، أكثر مما يعترف.

إيما لا تعيش معه، وأنها في بلد آخر، وأنها تفهم الإسلام بعمق، وتدرك أن الزواج الثاني ليس خيانة، بل خيار مشروع، وأن ظروفه تسمح، وأن قلبه لم يغلق تمامًا، لكن هل هذا يكفي؟

هل الحب وحده يبزر العودة؟

هل يمكن أن يطلب من مي أن تبدأ معه من جديد، في بلد جديد، حياة جديدة؟

هل يحق له أن يطلب منها أن تترك كل شيء، لتكون له... الثانية؟

\*\*\*

في المساء اليوم التالي وقف مروان أمام البوابة الحجرية للبيت في القديم، يحمل في يده باقة وردٍ وكأنها نُسجت من حنينٍ ضحكته التي كانت تملأ زوايا الجامعة.

ارتبك وهو يهضم بالضغط على الجرس، تراجع خطوة، ثم تقدّم اثنتين. فجأة، شعر بوخزٍ مرير في صدره...

"كيف أقول لها إنني ما زلت أحبها؟"

كيف أعترف وأنا رجل متزوج، لي بيت وأطفال؟

هل تراه اعترافًا أم أنانية؟

هل تراه حبًا أم اعتداءً على حياتها الجديدة؟"

يخشى أن تظنه عائدًا بدافع العوز العاطفي، لا الحب. خاف أكثر أن ترى فيه صورة الرجل الشرقي الذي يريد كل شيء، حتى لو كان غير متاح، خاف أن ترفضه فقط لأنه أب، متزوج، لديه ثلاث أطفال، مكبلٌ بقيود لم يخترها، أن تنظر إليه بنصف عين، أن تقول له:

"أنت لا تصلح لي، حياتك مزدحمة أكثر من اللازم."

خفقت دقات قلبه، وتداخلت في خياله لحظات مقابلته مع إيما، وذكرياته

مع ميّ، كل شيء بدأ مشوشًا... وجه إيما وهي تفتح له الباب في إسطنبول، ووجه ميّ وهي تضحك في ردهات الجامعة، شعر بأنفاسه تختنق، والهواء يضيق، والأرض تدور تحت قدميه كأنها ترفض أن تثبت موقفه.

نظر إلى باقة الورد في يده، ثم إلى الباب، ثم إلى نفسه.

كل شيء بدأ أثقل مما يحتمل

أسقط باقة الورد إلى الأرض

واستدار كأنما يفرّ من حافة الاعتراف إلى قاع الصمت.

وصل تركيا مع المساء، ففتحت له إيما الباب، وعاد صوت البيت كما هو: ابتسم، وضع الحقيبة، غسل وجهه، ثم جلس بجوارها، يفتح المصحف، ويقرأ، ربما لم يكن هذا هو الطريق الذي تخيله لحياته، لكنه، للمرة الأولى، يشعر أنه ضيف في نفسه

تقربت إيما وجلست بجواره جلستها المعهودة .... تلك التي تسبق العاصفة. كانت قد صمّمت على أن يترك عمله في السويد، أن ينتقلوا معًا إلى تركيا، أن يبدأ من جديد مشروع صغير، تجارة، تدريس اللغة، لايهم، المهم أن تلتئم الأسرة، أن يكبر الأولاد وهم يشمون رائحته لا صدى صوته عبر الهاتف

- قال وهو ينفث الهواء من صدره، كأنما يتخلص من ثقل ما لا يرى:

" مستقبلتي هناك واضح كالشمس.. مش معقول أسيب شغل عمري، وأرعي كل حاجة في المجهول!"

- أجابته، بهدوء يشبه العاصفة بصوت شجاع، لكنه كان يرتجف من الداخل:

" لن نطلب منك ما فوق طاقتك.."

- رمقها بنظرة مفعمة بالدهشة وقال ساخرا:

"انت تخططي لكل حاجة كأن لعالم لازم يمشي على مزاجك طوع يدك، في البداية التخطيط لسفر أولاً السفر لتركيا.... دلوقتي نعيش كلنا سوا، وكأني ماليش رأى .. كأني بل كيان!"

- نظرت إليه نظرة عميقة، ثم قالت بنبرة حادة وجادة:

" أي دين يقبل إن زوجتك تفضل وحدها بالشهور؟

فين النخوة؟

فين الرجولة؟

فين الإسلام؟"

تلك الكلمات، رغم صدقها، قطعت آخر خيط بينهما.

لكنها أيضًا أيقظت شيئًا في داخله... شيئًا كان يحاول دفنه منذ زيارته الأخيرة للقاهرة. أدرك فجأة أن إيما لا تطلب منه معجزة، بل تطلب منه أن يكون أبًا حاضرًا، زوجًا مسؤولًا، رجلًا لا يختبئ خلف المبررات، هي لم تسأله أن يختار بينها وبين مي، بل أن يختار بين أن يكون ظلًا... أو أن يكون جذعًا يلتف حوله الجميع.

\*\*\*

عاد إلى السويد، أرسل النفقات في مواعيدها، اعتاد على التحدث إلى أبنائه عبر الفيديو، وأقنع نفسه أن هذا يكفي. مرّت السنوات... حتى بلغ عامه الخمسين.

يومها نظر في المرأة طويلًا، ولم يعرف الرجل الذي يحدّق فيه، كأن حياته مرت بجانبه لا به ... مشي عمره كله على أطراف اصابعه ، حتى لا يؤلم أحد. "

أصدقاء تباعدوا، زوجة ملتزمة حتى الاختناق، أولاد ينادونه "بابا" لكن المسافة بينهم أبعد من الشاشة، حاسس بالفراغ، لم يصبح شيخًا ولكنه

فقد براءة الشباب.

لم يكن فاشلاً ولكنه لم يحقق كل ما أراد.

كانت التساؤلات تعصف برأسه كما لو كان يراجع دفتر عمره صفحة صفحة.... هل هذا ما أردته ؟

هل اخترت ام سرت مع التيار ؟

قطع تذكرة إلى مصر، ظنّ أن قلبه حين يمشي في شوارعها القديمة سيتعافى، وما إن وطأت قدماه المطار، حتى وصله الخبر:

"مي تزوّجت... مرة ثانية من رجل يكبرها بكثير، مطلق، وله أبناء من زوجات سابقات"

أحس بحرقّة لم يعرفها من قبل، كأن الزمن سخر منه.

مي، دون أن تدري، أجابته على سؤاله المؤجل:

"نعم، كنت سأحبك، حتى لو كنت متزوجاً".

لكنه لم يمنحها الفرصة.

جلس على طرف السرير تلك الليلة، يحدّق في اللاشيء، الندم ينهشه بلا رحمة.

قال في نفسه:

"أخفّيتُ حبّي كي لا تُجرح، فجرحتُ نفسي وضيّعْتُها."

\*\*\*

عاد بعد عامٍ كاملٍ إلى القاهرة لا يعرف هل الذي أعاده هو الحنين إلى الوطن، أم الحنين إلى مي. جلس مع أصدقائه القدامى في أحد مقاهي وسط البلد، المقهى لم يتغير، لكن الوجوه تغيرت، والتجاعيد توزعت بينهم بعدل.

رغم ذلك، ظلت الذاكرة تحتفظ بخفة الضحك، ونبرة الأُنس التي لا

تخون، ومن بين الأحاديث المتناثرة، جاءت سيرة مي كطلقة مباغثة.  
قال أحدهم، وهو يقلب ملعقته في فنجان الشاي كمن يلقي حجرًا في ماء ساكن:

"مي سابت البيت... بينها وبين جوزها الجديد مشاكل كبيرة... شكلها مش راجعة تاني".

سكت الجميع، واكتفوا بنظرات مغلقة.  
أما مروان، فقد خفت أنفاسه فجأة، كما لو أن قلبه تذكر نبضًا قديمًا كان نائمًا طوال العام، وعادت له ملامحه القديمة  
فكر أن يراها، أن يحدثها.

أن يقول ما ظلّ حبيس قلبه سنوات طويلة:

"أنا لسه مستنيك... من قبل حسن، وبعده، ومن غيره".

خَطَط لكل شيء. ارتدى بدلة أنيقة، واتجه إلى مقر عملها، حيث كانت تعمل دائمًا. وقف أمام البوابة كمن ينتظر قدره.  
فجأة، رآها.

كانت تركن سيارتها، حركة يدها كما يتذكرها تمامًا.

جرت خطواته نحوها، قلبه يسبق قدميه.

اقترب... واقترب... حتى كاد أن يناديها.

لكن... فجأة، توقف.

تسمرت قدماه كأن شيئًا ثقيلًا أمسك به من الخلف.

شاهدها من بعيد، تضع هاتفها في حقيبتها، ثم تسير بخفة نحو الباب، وعندما اقترب لمح في وجهها ذكريات شبابه فتحسس ذاته وشعره الأبيض، فارتبك، وخشي أن ينهار... فاختر الهروب، ومضي في الاتجاه المعاكس.

بعد ساعات، كان في المطار.  
حقيبته الصغيرة بين يديه، وعيناه على شاشة المغادرة.  
عاد إلى السويد في صمت...  
كأن شيئًا لم يكن، قرر أن يطوي الصفحة، أن يعيش لما تبقى لا لما مضى،  
لكن الحياة لا تحترم قرارات القلب حين يهمس الماضي فجأة.  
بعد عدة شهور علم من إحدى الصديقات المشتركين أن حال مي يزداد  
سوءًا، بيتها تحوّل إلى ساحة معركة، وأن زوجها، ذاك الرجل الذي خطفها  
منه، أصبح يهينها... بل ويمدّ يده عليها.  
صُعق، لم يتخيلها مكسورة بهذا الشكل.  
في تلك الليلة لم ينم.  
ترددت في أذنه عبارتها القديمة، تلك التي قالتها له مرة في الجامعة، وهو  
يحمل لها أوراقًا ثقيلة بابتسامة خجولة:  
"أنتَ أمان... سند وظهر".  
شعر أنها تناديه... دون صوت.  
أرسل لها رسالة عبر فيسبوك:  
"طميني على أخبارك".  
وجاء الرد كوميز برق في ظلمة قلبه:  
"أنا بخير... الآن، بعد رسالتك".  
قرأها كنداء استغاثة.  
"أنقذني... كن كما كنت دائمًا".  
قدّم فورًا على إجازة من عمله.  
قيل له إن الموافقة ستأتي بعد شهر.  
انتظر كمن يحبس أنفاسه. وخلال هذا الشهر، كانت الكلمات تتبادل

بينهما كالماء والهواء.

كل صباح، يرسل لها باقة وردٍ افتراضية، ورسالة قصيرة فيها شيء من الحب القديم.

وكانت ترد بكلمات أخف... لكنها لا تقل دفنًا.

وأخيرًا، جاء موعد السفر.

لم تكن رحلة عادية.

لم تكن كالمرات السابقة التي عاد فيها إلى مصر مكسورًا.

في هذه المرة... كان ذاهبًا ليقلب الصفحة فعلاً.

جمع حقيقته كما يجمع القلب بقايا الأمل، وحدّد موعدًا للقائها في كافييه صغير بجوار مقر عملها.

حين رأى ظلّها يقترب بدت له كالشمس تميل للغروب تمشي بخطى

واثقة، ترتدي فستانًا ورديًا بسيطًا، لمح في عينيها اتساع الوطن الذي

غادرت ودفء الأيام التي لم تعد كانت، نظراتها رغم التعب تشبه أول

مرة رأى فيها الحياة. وشفاها... كأنها للتو همست باسمه فايقت فيه

شوقًا لماض كان يظنه مات

وشعرها... شعرها الذي انساب على ظهرها كأنه يتراقص على نسيمات

القاهرة، وكأنه يقول له:

"تركنتي بالأمس، لا قبله".

ارتفعت ضربات قلبه كمدفع يُطلق أول رصاصة في معركة استعادة

الحلم... تلاقت أعينهما، وكأن الوقت توقف في تلك اللحظة الساحرة... في

أعينهم ارتجف الزمن وحنين خبأه العمر خلف ستائر الصمت، ووجع

السنين وارتباك الاشتياق.

- أمسك يدها بلطف، وكأن يديه تلتقيان بشيء ثمين لا يريد أن يفلت

منه... وقال بصوت خافت، فيه حنان العمر وضياعه، وكأن كل حرف من كلماته يحمل نبضة قلبه:

"العمر بيجري... ومش عايزك تضيعي عمرك مع حد لا يقدرك... ولا يستهلكك".

لم تُجِب في البداية.

أغمضت عينيها للحظة، وكأنها تسمح لكلماته أن تنفذ داخلها، أن تتغلغل في شقوق الألم، وتُرمم ما بقي من هشاشة القلب.

- ثم همست:

"أنا تعبت...".

- اقترب منها أكثر. لا ليقول شيئاً... بل ليكون قريباً فقط، كما كان دائماً. السند. والظهر. والطمأنينة، ثم قال بهدوء:

"لو لسه في فرصة... حتى لو صغيرة... خلينا نبدأ من تاني".

- نظرت إليه طويلاً، ثم ابتسمت... ابتسامة بها ألف وجع وأمل واحد، وقالت بصوت خافت لا يخلو من قسوة الواقع:

"اتكلمت مع جوزي... ووعدني يحترم رغباتي ويبدأ من جديد".

- انحبت أنفاسه، كأن قلبه، الذي مَدَّ يده أخيراً ليستعيدها، سُحب إلى الظل فجأة، فهم من نبرة صوتها أنها لم ترجع له حباً، بل تراجعاً... تراجعاً من أجل المحافظة على اسرته وأولاده... من أجل ألا تبدو امرأة خائنة، لا تريد أن تحطم اسرته، جل حديثها تلك الليلة عن أولاده وزجته السويدية. صمت، استمع، لكنه لم يكن معها، داخله يتفتت.

شعر أن ترده الأول والثاني كلّفه الفرصة الوحيدة التي وهبها له القدر.... غادر القاهرة صامتاً.

لم يكتب لها، لم يرسل ورداً، لم يُلمح بشيء.

واكتفى أن يراقبها من بعيد، كما بدأ.

لم يمر شهر، حتى فوجئ بصورة سوداء، ونعي مختصر على صفحتها:

"البقاء لله... مي توفيت اليوم في المستشفى بعد وعكة صحية مفاجئة".

توقّف الزمن عنده. انهار كأنه سقط من طائرة مشتعلة، دخل في نوبة اكتئاب حاد، لا يرى فيها وجهًا إلا وجهها، ولا يسمع صوتًا إلا صدى صوتها يوم قالت:

"أنا تعبت... وأنا لوحدي".

حمل نفسه موتها.

ردد في وحدته، بصوت خفيض يشبه النحيب:

"لو أنّي لم أتردد... لو أنني بادرتها يوم نادتنِي، حين كنت تنتظر سندًا

وظهرًا... لو أنني اخترتها حين كانت تحتاج أن تُختار... لربما كانت الآن على

قيد الحياة، ولعلنا كنا معًا، نعوض ما ضاع ونرمم ما تهدّم".

ظلّ يجلد ذاته .... مِ لم تعرف من الدنيا سوى الصبر، ولم تذق من

الحياة سوى الصمت والتجاهل، كأنّ الله أبقاه حيًّا، ليشعر بكلّ الألم الذي

كانت تخفيه خلف ابتسامتها.

\*\*\*

عاد والتقط هاتفه، فتح رسالة صديقه التي لم يُكمل قراءتها من قبل:

" ولا هيشيل عنك يامروان اللي اتربّي في صدرك بقاله سنين.. عارف انك

واقف بين اللي فات، واللي جاي... ومش لاقى نفسك في الاتنين. حاسس

بالفراغ وهو ماشي جنبك ، محتاج حاجة تمسكك...حاجة ترجع لك

الإحساس إنك حي.

ولما ظهرت هي...

كنت فاكر إنك لقيت المخرج.

الحب القديم، الحلم اللي ماکملش  
افتكرت إنك لو رجعت له، هتعتبر الأزمة  
تخرج من عتمة منتصف العمر، وتكمل... مش وحيد.  
بس الحكاية مشت في سكة تانية.  
هي رجعت، بس مش ليك..... رجعت لحياتها الأولى  
ثم راحت... خالص. وإنت دلوقتي، واقف في النص  
مش عارف تحزن عليها لو حدها. ولا تحزن على نفسك  
ولا على العمر اللي ضاع منك، وإنت بتدور على المعنى.  
بس اسمعني كويس... اللي حصل مش ذنبك.  
ولا تأخيرك كان غلطة. ولا حبك كان وهم.  
كلنا في لحظة ما، بنفتكر إن الماضي هو طوق النجاة  
بس اللي راح راح.. ومفيش حب بيرجع بالعافية  
ولا بيعيش على الندم، لو بتحبتها افتكرها بدعوة  
بحاجة حلوة تعملها على روحها  
لكن بلاش تعيش مسجون في لحظة راحت  
لأن الحياة مش هتستناك تصالحها... وهي ماشية.  
إنت راجل ناجح، وعندك أولاد في تركيا بيكبروا من غيرك  
وبيحبوا يسمعوا صوتك، حتى لو من بعيد.  
ما تسيبهمش يتعلموا الغياب منك  
وإنت لسه تقدر تبقى حاضر.  
ارمي تعبك على الناس اللي بتحبك  
افتح الشبابيك... حتى لو بصعوبة  
وخذ بالك من نفسك، قبل ما الوقت يسرقك

وانت واقف مكانك.

ربنا قال:

"وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم".

ويمكن الخير جاي...

مش على شكل حب

بس على شكل سكينه...

أو تصالح...

أو بس لحظة نوم هادئة.

أنا.... كنت ساكت

بس ساكت بحب.

أنا أخوك... مش بس صاحبك

وهافضل جنبك

لحد ما تضحك من قلبك من تاني...

حتى لو بعد حين.

أخوك دايمًا... يوسف"

انهمرت دموعه، وكان الرسالة كانت مرآة صادقة لمشاعره،

صفعته برفق، وأيقظته من سجن الحنين، ظل يحدق في الفراغ، وكان

كلمات يوسف اقتلعت روحه من منفي الذكرى، وأعادتها إلى عتبة البيت

القديم... بيت الحياة.

انتفض، التقط قلمه، كتب استقالته بخط حاسم، وجمع حقيبتة.

سافر إلى تركيا، إلى حضن الحقيقة.

في المطار، اندفع نحوه أولاده كمن يحتضن وطناً استردّه.

إيما وقفت بعيداً لحظة، ثم اقتربت...

ضمّته بصمته يشبه بكاء الجدران، وهمست:  
"أعتذر... وأرجو الغفران"

ثم اقتربت إيما من أذنه، وقالت بحسّ امرأة تعرف، بفطرتها الأنثوية، أن قلبه لم يكن لها وحدها يوماً... أن ثمة أخرى كانت تسكنه بصمته، وتأتي الرحيل:

"أحياناً نظن أننا أحببنا شخصاً، بينما كنا فقط نحب إحساسنا معه... نحب ما كنا عليه، لا ما كان هو عليه".

عندها، ابتسم... لا من شماتة، بل من مرارة تشبه الصفح وكأن كلمات إيما فتحت في داخله نافذة تُطلّ على نفسه القديمة. وقال في سرّه:  
"أنا من يجب أن يطلب الغفران..."

أنا من وجدت في الذكرى دفناً خادعاً  
وارتديت عباءة الحنين كأنه حب ...

كنت أبحث عن نفسي في وجه من أحببت  
فإذا بي أضل الطريق مرتين: مرةً إليها، ومرةً عني.  
ولا أدري حتى الآن... أيُّ الطريقين كان أشدّ وجعاً.

تمّ

## ♦ من أعمال المؤلف :

### الروايات:

- هلسنكي
- فارس الذكريات

### المجموعات القصصية القصيرة:

- "سقوط ناعم"
- 2- يقين الأصدقاء .
- 3- الحذاء .
- 4- وتد الحزن الصامت
- 5- شوال الحسنات .
- 6- من لا يأكل من الخبز... لا يُطفئ نيران الفرن .
- 7- عشرة أيام للنسيان
- 8- من يزح الغبار
- 9- قبضة من حرير
- 10- بين الصف الخامس والسماء
- 11- ظل حنين منتصف العمر

وقريبا رواية - ستوكهولم "عبد الحميد المصري" مراحل الهجرة السبع

yasser.nabil1965@gmail.com